أولادنا

توم سُويَر



تـوم سُويَـر





٢٧

توم سُويَر

بقلم : حلمى مراد

عن : مارك توين



الطبعة الثانية



دار المعارف

قام بتلخيص هذه الرواية عن النص المطول

الدكتور وليم الميرى

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

توم سوير

للكاتب الأمريكى الكبير « مارك توين »

هذه القصة من أشهر القصص فى الأدب الأمريكى ، ويندر أن تجد أمريكيًّا أو قارئًا للإنجليزية لم يقرأ فى صباه قصة « توم سوير » . وقد ترجمت هذه القصة إلى جميع اللغات العالمية ، فقرأها الفتيات والفتيان فى جميع البلاد .

وسبب شهرة هذه القصة أن مؤلفها مارك توين قد سجل فيها ذكرياته عن أيام صباه العابثة ، فى قرية تقع على شاطئ نهر «المسيسبى» . فالمغامرات الممتعة التى أقدم عليها الولد العابث الجرىء « توم سوير » قد حدثت بالفعل للمؤلف « مارك توين » فى صباه !

و « مارك توين» اسم مستعار لأشهر كتاب أمريكا فى القرن الماضى . . أما اسمه الحقيقى فهو « صمويل لانجهورن كليمنز » . وقد ولد فى ولاية (فلوريدا) الأمريكية عام ١٨٣٥ ، وعمل فى صباه بائع جرائد . وعامل مطبعة ، ثم أصبح مرشداً للقوارب النهرية فى (المسيسبى) . وبعد عامين من العمل فى النهر ، بدأ يكتب قصصًا فكاهية أذاعت اسمه . فاحترف

الكتابة ، وقضى وقته فى الرحلات والسفر ، وأشهر كتبه التى خلدت اسمه هى : « مغامرات توم سوير» ، و « مغامرات هكلبرى فين » ، و« الأمير والفقير » ، و « الحياة على نهر المسيسبى » ، و « يوميات آدم وحواء » .
وقد توفى (مارك توين) عام ١٩١٠ .





١

— « توم » ! « توم » ! . . . تعال يا « توم » ! . . . عجبًا ! . . أين ذهب هذا الولد ؟ . . . يا ولد يا « توم » !

وأرْخَت السيدةُ العجوز نظارتها ، ونظرتْ من فوقها ، وأجالت عينيها فى جوانب الغرفة . ثم أعادت وضْع النظارة ، ونظرت من خِلال زجاجها ، وبَدَت عليها الحيرةُ لحظة . ثم قالت بصوت ليس بالحاد ، ولكنه عالٍ يصل إلى سمع

قِطَع الأثاث الجامدة :

— حسنًا ، آه لو وضعتُ يدى عليك ، فسوف . . .

ولم يظهر « توم » ، فرفعتْ صوتها أكثر وصاحت :

— تو — و — م . . . توم !

وأحسَّت بحركة خافِتة من خلفها ، فتلفّتت فى الوقت المناسب ، وأمسكت ولداً صغيراً من كَتِفه ، وقالت :

— آه ، كان يجب أن أفكّر فى البحث عنك وراء هذا «الدولاب»! ماذا كنتَ تفعل هناك ؟

— لا شىء يا خالتى !

— لا شىء ؟ انظر إلى يدَيْك ، بل انظر إلى فمك ، لا تزال آثارُ « المربَّى » عالقةً به ، قلت لك أربعين مرة لا تلمس المربَّى ، سوف أجلدك بالعصا !

وارتفعت العصا فى الهواء ، وأحسّ « توم » بوقعها قبل أن تصل إليه ، فصاح فجأة :

— انظرى خلفك يا خالتى !

واستدارت الخالة بسرعة . وفى هذه اللحظة انطلق الصبىّ بأقصى سرعته ، وقفز من سُور الحديقة ، واختفى وراءه ! . . . فانفجرت الخالة « بولى » ضاحكة ، وهى تقول لنفسها :

— يا له من عفريت ! إن حِيَلَه كثيرة ، وهو يعرف كيف

يضحك عليّ ، ولا أستطيع أن أناله بعصاى ، ولكنه ابن أختى المتوفّاة ، ولا يُطاوعنى قلبى على ضربه بأىّ حال . إنه يلعب الآن « الهوكى » : وسأعاقبه بالعمل فى المنزل غداً . فى حين يتمتّع غيرُه من الأولاد بيوم الإجازة . إنه يكره العمل أكثر من كُرْهه أىَّ شىء آخر . ولكن يجب علىّ أن أؤدى واجبى نحوه وأحسن تربيته !

وكان « توم » فى تلك الأثناء يلعب الهوكى فعلا . ثم سبَّح بعض الوقت فى البحَيْرة المجاورة . وعاد فى الوقت المناسب لتناول العشاء . وخلال العشاء حاولت الخالة « بولى » أن تحتال عليه فى الحديث . لتعرف منه هل نزل إلى البحيرة أم لا ؟ . . . فقالت شبه متسائلة :

— كان الجوّ حارا اليوم يا « توم » !

— نعم يا خالتى .

— حارّ جدا ، أليس كذلك ؟

— هذا صحيح .

— ألم تسبح فى البحيرة يا « توم » ؟

— لا ، لم يكن لدَىَّ رغبة فى السباحة اليوم . . .

ومدّت السيدة العجوز يدها ، ولمست قميص « توم » . كان جافًّا . وكانت ملامح وجهها لا تُنبئ بشىء ، ولكنّ « توم » أدرك نواياها ، فقال بسرعة :

— بعضُنا غطس برأسه فقط فى الماء ، حتى إن شعرى لا يزال مبتلا . انظرى .

وهنا خطرت للخالة « بولى » فكرة بارعة ، فقالت :

— أظنّ أنه ليس من الضرورى أن تفك « ياقة » قميصك التى خطتها لك لتغطس رأسك. هل فككتها يا « توم » ؟.. اخلع «جاكتتك» لأرى « الياقة » !

وأطاع « توم » .

وكانت الياقة مخيطة بعناية !

فقالت الخالة :

— هه ! حسنًا ، نجوت منى ، وإن كنتُ متأكدة من أنك لعبت الهوكى ، وسبحت فى البحيرة !

وهنا تدخَّل « سدى » — شقيق « توم » من والدته — فقال :

— أذكر أنك خِطْت له ياقة قميصه بخيط أبيض ، وهذا خيط أسود !

فصاحت الخالة :

— فعلا ، لقد خِطْتُها لك بالخيط الأبيض يا « توم » !

ولكن « توم » لم ينتظر الباقى ، فانطلق خارجًا قبل أن تمتدّ إليه عصا الخالة ، وهو يتوعَّد أخاه ويقول له :

— سأضربك علقة على هذا يا « سدى » !

وبعد أن أصبح « توم » فى الشارع ، وشعر أنه فى مكان أمين ، أخرج بكرتَىْ خَيْط من جيبه وفحصهما ، وقال لنفسه :

— ماذا أفعل معها ؟ إنها تخيط الياقة بالخيط الأبيض مرة ، وبالخيط الأسود مرة أخرى ، ولا أتنبه إلى ذلك فى بعض الأحيان !

* * *

وسار وهو يَصْفِر ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، ولكنّ ضوءها كان لا يزال يُنير الدنيا حوله . . . وفجأة كَفَّ « توم » عن الصفير ، عندما لمح شبح ولد غريب عن قرية (سانت بترسبرج) — فقد كان « توم » يعرف أولاد القرية جميعًا ، وكان متأكداً أن هذا الولد ليس منهم ! — وظهور إنسان جديد فى القرية الصغيرة شىء يُثير العَجَب ، ولكن هذا الولد لم يكن غريبًا فقط ، بل كان مثيراً للانتباه أيضًا . كان أطْولَ من « توم » ، ملابسُه نظيفةٌ أنيقة ، ويضع فوق رأسه قلنسوة ، وربطة عنق حول رقبته . وأكثرُ من هذا ، أنه يلبس حذاء جديداً ، مع أنّ اليوم كان يوم جمعة وليس يوم أحد ، ولم يكن من أيام الأعياد أيضًا . . . ومع ذلك كان فى مَظْهَر الولد الغريب ، والجو المحيط به ، شىء لم يرق « توم » !

ونظر كلّ من الولدين إلى الآخر فى صمت وتحفُّز ، ثم قال « توم » :

توم : إنني أستطيع ضربك !
الغريب : تعالَ وجرِّب !
توم : أتظنّ نفسك قويًّا ؟ إنني أستطيع ضربك بيد واحدة . ويدى الأخرى خلف ظهرى !
الغريب : هذا كلام إنسان جبان ، وإذا لم تكفّ عن هذه السخافات كسرت رأسك !
توم : ها . . . ها . . . حقًّا ؟ !
الغريب : طبعًا !
توم : إذن تعالَ واكسرها ، إذا لم تكن خائفًا منى !
الغريب : لست أنا الخائف . . .
توم : بل أنت !
الغريب : بل أنت . . .

واقترب الولدان ، ووقفا كتِفا لكتف ، وضمّ كلّ منهما قبضة يده . ولكنهما لم يفعلا شيئًا آخر . وقال « توم » :

ــ إنك جبان . وسأجعل أخى الأكبر يسحقك باصبعه الصغيرة !

ــ لا يهمنى أخوك الأكبر ، فعندى أخ أكبر منه ، وأخى يستطيع أن يقذف بأخيك من فوق هذا السور !

وفجأة تحرّك « توم » ، ورسم خطًّا على التراب بأصبع قدمه الكبيرة وقال :



ـ أتحدّاك أن تعبر هذا الخطّ !

فعبر الولد الغريب الخطّ في تحدّ وقال :

ـ لقد قبلت تحدّيك ، أرني قوتك !

ـ سأراهنك بقرشين [1] على أنى أستطيع أن أضربك !

فأخرج الولد كميّة من النقود من جيبه . ولوّح بها في ازدراء في وجه « توم » . فأسرع « توم » وخبط يد الولد . وأسقط النقود منها على الأرض ! . . . وفي لحظة تماسك الولدان . ووقعا على الأرض ،

---

(١) استعملنا « القرش » هنا بدل « السنت » وهو العملة الأمريكية الواردة في أصل القصة ، لتقريبها إلى ذهن القارئ العربي . (المترجم) .

وأخذا يتدحرجان على التّراب ، ويتضاربان بشدّة ، وكل منهما يشد شعر الآخر ، ويمزّق ملابسه !

. . . وبعد معركة عنيفة ، انزاح الغبار ، وظهر « توم » جاثمًا فوق ظهر خصمه ، يهدّده بقبضة يده ، والولد المسكين يحاول التخلص منه . . .

وأخيراً قال « توم » فى كبرياء :

ــ هذا درس لك حتى تتأكد من شخصية الناس قبل أن تتهجّم عليهم !

وترك « توم » الولد الغريب ، فقام هذا فى هدوء ، وسار ينفض التّراب عن ملابسه الغالية ويبكى ، وهو ينظر خلفه مهدداً « توم » بأنه سوف يعود إليه ويضربه ، فى مرة قادمة !

وعاد « توم » متأخراً فى تلك الليلة ، ولما رأته الخالة « بولى » ، والتّراب يكسوه ، وقد تمزّقت ملابسه ، قررت أن تجعله يشتغل فى اليوم التالى ، وتحرمه من الإجازة !



٢

وجاء صباح يوم السبت ، وكان يوماً مشرقاً منعشاً مملوءاً بالبهجة ، وكانت السعادة تملأ كل قلب . . . ما عدا قلب « توم » !

كان « توم » يسير فى طريق جانبى ؛ وفى يده « جردل » مملوء بسائل الجير الأبيض، وفرشاة ذات يد طويلة . كان عليه أن يبيّض السور الذى يمتد على طول الطريق ! . . . ونظر « توم » إلى السور الطويل العالى ، وشعر بالحزن

الشديد يملأ صدره ، فتأوّه وهو يغمس الفرشاة فى « الجردل » ، ويمرّ بها فى أعلى السور عدّة مرّات . . . ثم نظر إلى الجزء الأبيض ، وقارنه بالمساحة الشاسعة التى لم تبيّض بعد . . . فانقبض قلبه !

. . . وجلس « توم » على صندوق فارغ ، وقد غلبه اليأس . . .

وجاء الولد الأسمر « جيم » – الذى يساعده أيضًا أحياناً فى أعمال النظافة – وهو يثب فى مشيته ، حاملا « جردلا » صغيراً . كان فى طريقه إلى « طلمبة » القرية ليملأ « جردله » بالماء . وكان « توم » يعتقد دائمًا أن « جيم » لا يحسن أى عمل من الأعمال ، ولكنه الآن غيّر رأيه ، فقد تذكر أن عدداً كبيراً من الأصدقاء يلتقون عند الطلمبة . ولما اقترب « جيم » قال « توم » :

– اسمع « يا جيم » ، سأحضر لك الماء ، إذا بيّضت لى جانبًا من هذا السور !

فهزّ « جيم » رأسه ، وهو يقول :

– لا أستطيع يا سيد « توم »، فقد حذّرتنى السيدة خالتك ، وقالت لى : « إذا طلب منك « توم » أن تساعده فدعه وشأنه ، وامض فى طريقك » . . . لذلك أنا آسف جدًّا يا سيد توم !

فقال « توم »:

– لا تهتم بما قالت ، فهى لن تعرف شيئًا !

وأجاب الولد :

ــ لا أستطيع يا سيد « توم » ، فإنها سوف تعاقبنى ، أنا واثق من ذلك . سوف تضربنى على رأسى !

ــ كلا ، إنها لا تضرب أحداً على رأسه ، إنها طيّبة ولا تعنى ما تقول ، ثم إننى سأعطيك قرشًا .

وبدأ « جيم » يتخاذل . . ثم قال :

ــ قرش ؟ ولكننى خائف جدًّا ؟

ولم يستطع « جيم » مقاومة الإغراء ــ فهو بشر ! ــ فوضع « جردله » على الأرض ، وأخذ القرش . . . وفى تلك اللحظة ظهرت الخالة « بولى » عائدة من الحقل . ولم يكد « توم » يراها حتى أسرع إلى فرشاته ، وأخذ يبيّض السور بقوة وحماسة ، أما « جيم » فقد حمل « جردله » وفرّ هاربًا !

لكن حماسة « توم » لم تستمرّ طويلا ، وبدأ يفكّر فى برنامج اللعب الذى أعدّه ليومه ، وفى الأولاد الذين سيسخرون منه ، وهم فى طريقهم إلى اللعب ، وهو مستمرّ فى عمله السخيف ! . . . وعند هذه الفكرة تملكه الغضب الشديد ، فأخرج كلّ ثروته ، وعدّها ، فإذا بها قروش قليلة لا تشترى له ساعة من الحرية . . . فأعاد ثروته إلى جيبه ، واستسلم لليأس !

وسرعان ما لمع فى ذهنه خاطر . . . فأمسك بفرشاته ، وعاد إلى العمل ، وقد ظهر « بن روجرز » من بعيد . . . وكان « بن روجرز »

أثقل الأولاد ظلا على قلب « توم » . وتقدم « بن » وهو يقضم تفاحة شهية . . . ولكن « توم » مضى فى عمله ، بدون أن يلتفت إلى « بن » . . . فحملق « بن » لحظة ، ثم صاح :

— ماذا تفعل يا « توم » ؟

وتظاهر « توم » بأنه لم يسمع ، ومضى فى عمله ، وهو يتأنَّى فى تمرير الفرشاة ، تأنِّى « الفنان » المعجب بفنّه ! . . . فى الوقت الذى كان فيه لعابه يسيل للتفاحة الشهية !

وصاح « بن » مرة أخرى :

— كيف حالك يا « توم » ؟ ألا تريد أن تترك هذا العمل وتأتى للسباحة معى ؟

واستدار « توم » فجأة وقال :

— أهو أنت يا « بن » ؟ إننى لم أحسّ بحضورك ، ثم إن هذا ليس عملا !

واستأنف عمله ، وهو يقول :

— إن تبييض سور فرصة لا تتاح للولد منا كل يوم !

وعند ما سمع « بن » هذه الجملة توقف عن مضغ التفاح ، وأخذ ينظر إلى « توم » فى إعجاب واحترام . . . ثم توقف « بن » عن قضم تفاحته ، فى حين استمر « توم » فى عمله . . . وبين الحين والحين كان يتراجع ليتأمل البياض ، ثم يضيف لمسة هنا ، ولمسة هناك . . . وكان

« بن » يراقب كل حركة ، واهتمامه يزيد شيئًا فشيئًا ، ثم قال فجأة :

ــ دعنى أبيّض قليلا يا « توم » !

وبدا أن « توم » أوشك أن يوافق ، ولكنه غيّر رأيه ، وقال :

ــ كلا . فإن الخالة « بولى » مهتمة بهذا السور اهتمامًا خاصًا ، لأنه يطلّ على الشارع ، فلو كان السور الخلفى لما مانعت ، أما هذا السور فلا بد من العناية التامة بتبييضه ، ولا أحسب أن هناك ولداً فى الألف يستطيع أن يبيضه على النحو المرغوب فيه !

فقال « بن » :

ــ أتظنّ هذا ؟ دعنى أجرّب مرّة يا « توم » . . . لو كنت مكانك لتركتك تجرب . . .

فردّ عليه « توم » :

ــ أنا لا أمانع ، لكن الخالة « بولى » لن توافق ، فقد رفضت أن تسمح « لجيم » بالعمل فيه ، حتى « سدى » نفسه أراد أن يقوم بالعمل ولكنها رفضت أيضًا . والآن دعنى أتم عملى . . .

فتوسل إليه « بن » قائلا :

ــ اسمع يا « توم » ، دعنى أبيض السور وأنا أعطيك تفاحتى !

ونظر « توم » إلى « بن » لحظة ثم قال :

ــ أنا فى الحقيقة خائف يا « بن » ، لكن لا بأس ، هات التفاحة .

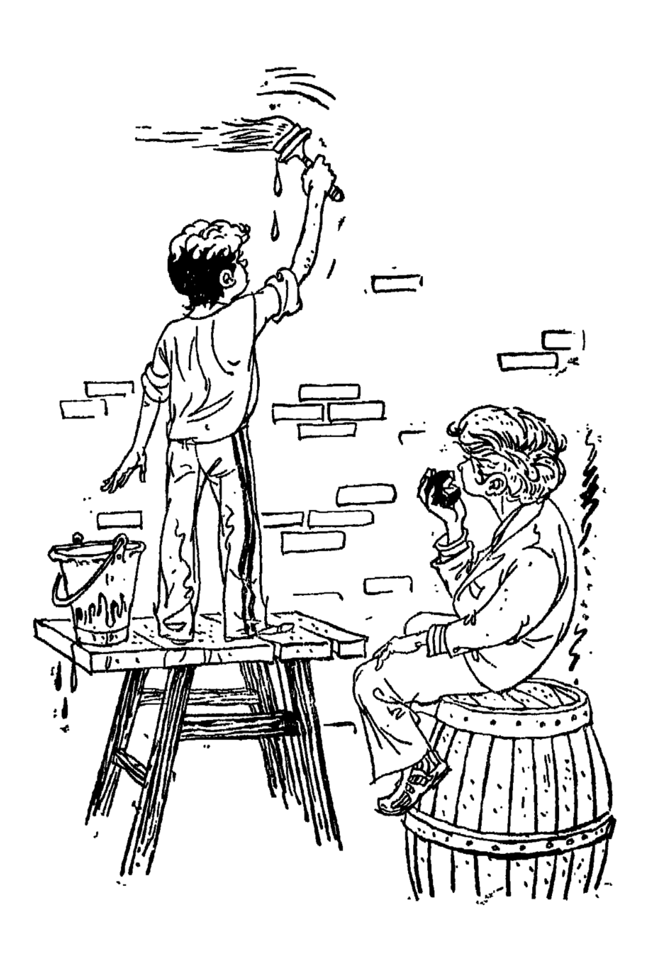
وأخذ « توم » التفاحة ، وأعطى « بن » الفرشاة ، وقلبه يكاد يطير من صدره من الفرحة !

وهكذا ، بينما كان « بن » يعمل فى جد ومشقة . والعرق يتصبّب منه ، جلس الفنان المتقاعد « توم » على برميل فى الظل ، واضعاً ساقاً فوق ساق ، وهو يقضم التفاحة فى تلذّذ ، مفكراً فيمن يكون ضحيته التالية بعد « بن » !

وكان ضحيته التالية « بيلى فيشر» ، الذى انتهز الفرصة الذهبية التى أتاحها له « توم » فى أن يكون « فناناً » ، مقابل طيارة ورق ، أخذها « توم » فى ضيق وتعفف !

وأشبع « بيلى » هوايته الفنية فى تبييض الحائط ! . . . وهكذا ، ساعة بعد ساعة ، أخذ صبيان المنطقة يقومون بالعمل فى تبييض السور ، حتى إذا ما انتصف النهار كان « توم » قد ازداد ثراء ! . . . فإلى جانب الأشياء التى ذكرناها ، وإلى جانب تبييض الآخرين السور – بدلا منه ! – حصل « توم » على : اثنتى عشرة بلية ، وقطعة زجاج زرقاء ، ونحلة ، ومفتاح يفتح أى شىء ، وقطعة طباشير ، وعسكرى صفيح ، وسدادة من الزجاج ، ومقبض باب نحاسى ، وحزام كلب – ولكن من غير كلب ! – ومقبض سكين ، وأربع قطع من الخشب البرتقالى !

حصل « توم » على كل هذه « الثروة » ، وراح يلهو بها ، فى حين كان الأولاد يتعاقبون الواحد بعد الآخر ، يبيّضون السور ! . . . حتى فرغوا



من وضع ثلاث طبقات من البياض عليه . ولولا أن الجير نفد من « توم » لكان قد أفلس كل ولد فى القرية !

وبعد أن أخفى « توم » كنزه الثمين ، ذهب ليبلغ خالته « بولى » أنه قد فرغ من مهمته ! . . . قال لها :

— أتسمحين لى بالخروج للعب الآن يا خالتى ؟

فسألته :

— هل فرغت من عملك بهذه السرعة ؟ ! . . . كم بيضت من السور ؟

— كله يا خالتى !

وذهبت الخالة للتأكد بنفسها ، وهى ترجو أن يكون « بن » قد أتم عشرين فى المائة فقط من عملية تبييض السور — وكانت على استعداد للرضا عنه لو كان فعل ذلك — ولكنها عندما وجدت السور كله مبيَّضاً ، استولت عليها الدهشة ، وصاحت :

— هذا غريب ، إنك تستطيع العمل إذا رغبت فى ذلك ! يمكنك أن تذهب الآن . ولكن تذكر أن تعود الليلة مبكراً ، وإلا عاقبتك .



٣

أسرع « توم » إلى الميدان الرئيسى فى القرية ، ليجد معسكرين من الأولاد على استعداد للقتال :

كان « توم » قائداً لأحد الجيشين ، و « جو هاربر » قائداً للجيش الثانى ... وبدأ القتال بين الجيشين ، واستمر فترة طويلة ، وانتهى بانتصار جيش « توم » انتصاراً باهراً . ثم تبادل الجيشان « الأسرى » ، وتحدد اليوم الذى يلتقيان فيه مرة أخرى ... وبعد ذلك تفرق أفراد الجيشين ، وأخذ « توم » طريقه إلى البيت .

وفى الطريق إلى البيت مرّ « توم » بمنزل « جيف ثاتشر » ، وشاهد فى حديقته بنتًا صغيرة لطيفة ، لفتت نظره بشعرها الأصفر الطويل المجدول ، فوقف يتأملها ساكنًا بدون أن تراه ، ولكن الفتاة أدارت وجهها فرأته ، فتظاهر بأنه لا ينظر إليها ، وأخذ يقوم ببعض ألعابه البهلوانية المثيرة . وبينما هو منهمك فى أداء لعبة خطرة ، رآها تستدير ثم تدخل البيت . ظل « توم » واقفًا فترة طويلة لعلها تعود ، ولكن الفتاة لم تخرج ، فوضع يديه فى جيبى بنطلونه ، وانطلق إلى منزله .

وجاء صباح يوم الاثنين والحزن يخيم على قلب « توم » — وكان هذا حاله فى صباح كل يوم اثنين ، لأنه بداية الأسبوع الدراسى ! — وحاول « توم » بكل جهده أن يتغلب على اليوم « المنحوس » ، فتأوّه وتظاهر بأنه مريض . ولكن لم يكن من السهل تَغَـفل الخالة « بولى » ، وكانت النتيجة أنها خلعت له ضرسًا كان غير ثابت فى مكانه !

وفى الطريق إلى المدرسة التقى « توم » بـ « هكلبيرى فين » ، وكما هى العادة دائمًا كان « هوكى » أو « فين » يتمخطر فى أسماله وخرقه البالية ، وهى فى الحقيقة أسمال رجل يكبره بأعوام وأعوام : فقبعته حطام قبعة واسعة ، ومعطفه يتدلّى حتى كعبيه . وبنطلونه معلّق بفردة حمالة ، وأطراف البنطلون تغوص فى التراب !

وكانت كل أمهات القرية لا يحببن « هوكى فين » ، فهو ولد كسلان ، غير مهذب ، زَرِىّ المظهر ، ومع ذلك فإن أطفالهن يحبونه بالرغم من

عيوبه — أو من أجل عيوبه ! — ويحبون صحبته . فهو يروح ويجىء فى القرية فى حرية مطلقة ، ينام على الرصيف فى الليالى الصيفية الجميلة ، وفى البراميل الفارغة فى الليالى الباردة . فليس عليه أن يذهب إلى المدرسة أو إلى الكنيسة . وليس لأحد سلطان عليه ، ويستطيع أن يستحم فى البحيرة متى طاب له ذلك . وهو ليس مطالباً بأن يستحم ، أو أن يغيّر ملابسه !

وبالاختصار كان هذا الولد يتمتَّع بحرية مطلقة . وكانت الأوامر المشدّدة قد صدرت إلى « توم » بعدم اللعب مع « هوكى » ، ولذلك كان « توم » يلعب معه بين الحين والآخر ، كلما سنحت له الفرصة ! . . . وعندما التقى به « توم » فى ذلك اليوم ، صاح فى فرحة :

— أهلا . « هوكى » ! ماذا فى يديك ؟

— قطة ميتة .

— دعنى أرها ! إنها جميلة وإن كانت ميتة . من أين حصلت عليها ؟

— اشتريتها من ولد .

— قل لى ما فائدة القطط الميتة يا « هوكى » ؟

— إنها تشفى الحبوب التى تظهر فى الجلد .

— وكيف تشفى الحبوب ؟

فأجابه هوكى :

— بسيطة ، تأخذ القطة الميتة ، وتذهب إلى المدافن فى منتصف الليل ، بعد دفن رجل شرير ، وفى منتصف الليل يأتى الشيطان ، وقد يأتى شيطانان أو حتّى ثلاثة ، ولكنك لا تستطيع رؤيتهم . وعندما يأخذ الشياطين جثة الشرير ، تلقى القطة وراءهم . وتقول : « يا شيطان ، اذهب وراء الجثة . . . ويا قطة ، اذهبى وراء الشيطان . . . وياحبوب اذهبى وراء القطة . . . » وهكذا تتخلص من الحبوب إلى الأبد !

فقال « توم » :

— طريقة معقولة . ولكن هل جرّبتها يا هوكى ؟

— كلا ، ولكن الجدّة « هوبكنز » أخبرتنى بها .

فقال « توم » :

— إذن فهى طريقة صحيحة ، لأن المعروف عن « هوبكنز » أنها ساحِرَة ! . . . قل لى يا « هوكى » . متّى تجرب هذه القطة ؟

— الليلة ، لأنى أعتقد أن الشياطين ستأتى لتأخذ جثة « هوس وليامز » الليلة .

فقال « توم » :

— خذنى معك يا « هوكى » !

— لا مانع . إذا كنت لا تخاف .

— أنخاف ؟ لا . اطمئنّ .

وهنا افترق الصديقان ، بعد أن تواعدا على اللقاء فى منتصف الليل !

* * *

وسار « توم » فى طريقه إلى المدرسة ، وعندما وصل إلى السور الخارجى للمدرسة اندفع إلى الداخل بسرعة ، وجلس بطريقة تدل على الجد والاهتمام . وكان المدرس جالساً على كرسيه العالى وقد غلبه النوم ، ولكن دخول « توم » المفاجئ أيقظه ، فصاح :

— « توماس سوير » !

وكان « توم » يعلم — عندما ينطق المدرس اسمه كاملا — أن هناك متاعب ستحلّ به !

فأجاب :

— نعم يا أستاذ !

— تعال هنا ! قل لى لماذا تأخرت ؟

وأوشك « توم » أن يلجأ إلى أكذوبة يسوّغ بها تأخيره ، ولكن نظره فى هذه اللحظة وقع على ضفيرتين من الشعر الأصفر تتدلّيان وراء ظهر مقعد . فعرف على الفور أن صاحبتهما هى الفتاة التى أعجب بها ، وكان بجانبها المقعد الخالى الوحيد فى الصف الذى تجلس فيه البنات . وأمام هذا المشهد قرّر « توم » أن يغيّر خطته ، بحيث يعاقبه الأستاذ بالجلوس فى صف « الفتيات » ؟ . . . فقال :

— لقد قابلت « هكلبيرى فين » ، ووقفت أتكلم معه بعض الوقت .

وتوقفت أنفاس المدرس ، وحملق فى « توم » كمن لا يريد أن يصدق ما سمع . وساد الصمت الفصل . هل فقد هذا الولد العنيد عقله ؟

وسأله المدرس ، كمن لا يصدق أذنيه :

— تقول ماذا فعلت ؟

— توقّفت لأتكلم مع « هكلبيرى فين » . . .

إذن فإن سَمْع المدرس لم يخطئْ ، فقال :

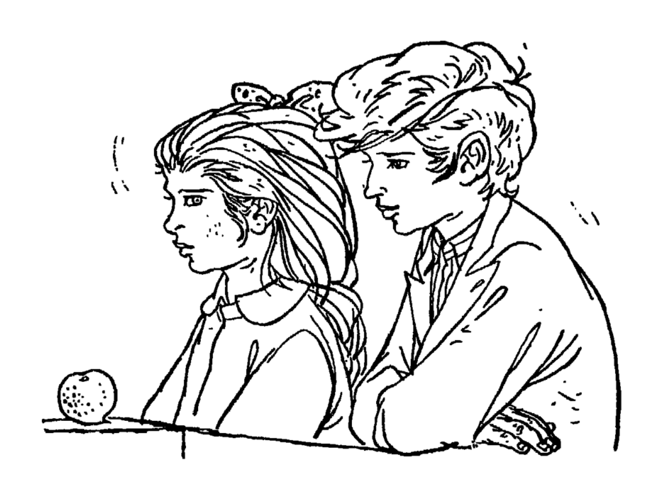
— يا « توماس سوير » ، هذا أشنع اعتراف سمعته حتى الآن ! اخلع معطفك .

وظل المدرس يضربه حتى تعب من الضرب ، ثم أصدر الأمر التالى :

— الآن اذهب واجلس فى صف البنات !

وهكذا نفّذ « توم » خطته بنجاح . فعبر الممر الفاصل بين الأولاد والبنات ، وجلس بجوار الفتاة ذات الشعر الذهبى . . . فابتعدت البنت قليلا . . . وعاد الفصل شيئًا فشيئًا إلى حالته الأولى . . .

وبدأ « توم » يختلس النظرات إلى الفتاة ، فقطّبت وجهها ، والتفتت إلى الجانب الآخر مدة دقيقة . وعندما التفتت ناحيته ثانية . فى حذر ، رأت أمامها ثمرة « خوخة » . فألقتها بعيداً . . . لكن « توم » أعادها



إلى مكانها ، فألقتها ثانية ، وفى صبر أعادها « توم » ، فتركتها الفتاة حيث هى ! . . . فكتب « توم » على لوحه الإردوازى :

ـــ أرجو أن تأخذيها ، فعندى غيرها !

. . . وتأملت الفتاة الكلمات ، بدون أن تبدى إشارة ما ، فى حين أخذ الولد يخطّ شيئًا على اللوح ، وهو يخفى ما يخطه تحت كفّ يده . . . ورفضت البنت حينًا أن تُبدى اهتمامًا مًّا ، ولكن حب الاستطلاع تغلّب عليها فى النهاية ، فهمست :

ـــ دعنى أرى . .

ورفع « توم » يده عن البيت الذى كان يرسمه . فنظرت الفتاة إلى الرسم فى شغف واهتمام ، وقالت هامسة :

— إنه رائع ، أودّ لو أستطيع الرسم .

فهمس « توم » :

— مسألة سهلة ، أنا مستعد لأن أعلمك الرسم .

— صحيح ؟ متى ؟

— فى فسحة الظهر ، إذا بقيت ولم ترجعى إلى البيت لتأكلى .

— سأبقى إذا بقيت أنت .

— حسن ، ما اسمك ؟

— « بيكى ثاتشر » !

وفى فسحة الغداء ، أعطى « توم » « بيكى » قلماً . وبدأ يساعدها فى الرسم ، وكانا يشعران بالسعادة وهما يتحدّثان معاً ، ويرسمان معاً .





٤

فى الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة، سمع « توم » — وهو نائم فى فراشه — صيحةً وصوت اصطدام زجاجة فارغة بالسطح . و بعد دقيقة واحدة كان قد ارتدى ملابسه، وأخذ يزحف على سطح البيت . . . وبجانب الجدار كان « هوك » فى الانتظار ، ومعه قطته الميتة !

وانطلق الولدان تحت جنح الظلام ، وبعد نصف ساعة كانا يشقّان طريقهما وسط حشائش المقبرة الطويلة ؛ ووجدا القبر الجديد الذى كانا

يبحثان عنه ، ثم احتميا وراء ثلاثة أشجار تبعد قليلا عن القبر ، وأرهفا السمع . . . ومن بعيد جاء نعيق البوم يبدّد السكون المخيم على المقبرة . . . وانتظر الولدان ، فى صمت ، فترة بدت لهما طويلة . . .

وفجأة قبض « توم » على ذراع صديقه ، وقال :

— أتسمع ؟

— ماذا ؟

— صه ! ها هو ذا الصوت مرة ثانية . ألم تسمعه ؟

— يا إلهى ! . إنهم قادمون يا « توم » ! . . . آه ، ليتنا لم نأت !

— لا تخف ! . . . إذا بقينا صامتين ساكنين تمامًا فلن يحدث لنا شىء !

وسمعا أصواتًا مختلفة من بعيد ، ثم ظهرت ثلاثة أشباح ، وفى يد كل منها مصباح قديم . وهمس « هوك » فى أذن « توم » ، وهو يرتعد من الخوف :

— يا إلهى ! لقد ضعت يا « توم » ، أتستطيع الصلاة ؟

وبدأ « توم » يصلّى ، عندما همس « هكلبيرى » مرة ثانية :

— اسكت !

— ماذا هناك يا « هوك » ؟



— إنهم بشريا « توم » . وأحدهم هو « موف بوترز » ، لقد عرفته من صوته ، يبدو أنه سكران كعادته دائماً .

— فعلاً يا « هوك » ، وقد عرفت ثانيهم ، وهو « أنجون جو » .

— هذا صحيح ، ولكن ماذا يفعلون هنا ؟

وكَفّ الولدان عن الهمس ، فقد اقترب الرجال الثلاثة ، حتى وصلوا إلى القبر ، ووقفوا على بعد خطوات من مخبأ الولدين :

وكان ثالثهم هو الذى يحمل المصباح ، وقد كشف الضوء عن وجهه فظهر أنه الطبيب الشاب « روبنسون » !

وقال الطبيب : « ها هو ذا القبر ! »

فوضع « بوتر » و « أنجون » النقالة التى كانا يحملانها على الأرض ، وبدآ يفتحان القبر . . . ووضع الدكتور المصباح فى مقدمة القبر ، ثم جلس ، وظهره ناحية الأشجار التى اختبأ خلفها « توم » و « هكلبيرى » ، وكان قريبًا من الولدين بحيث يستطيعان لمسه إذا أرادا !

وأخذ « توم » و « هوك » يراقبان ما يحدث أمامهما ، وبدا واضحًا أن الدكتور « روبنسون » قد استأجر « بوتر » و « أنجون » ليقوما بإخراج الجثة ليشرّحها الدكتور كما كان يحدث فى ذلك العهد . . . فقد كان أهالى الموتى يرفضون تشريحهم ، فكان الأطباء يضطرون إلى سرقة الموتى ، لعمل دراساتهم !

وبعد أن انتهى « بوتر » و « أنجون » من عملهما ، أخرج « بوتر » خنجره ليقطع به حبلا ، وقال :

— الآن وقد فرغنا من العمل ، عليك أن تدفع خمسة دولارات أخرى !

وانضم اليه « أنجون جو » قائلا :

— بالضبط : خمسة دولارات كاملة !

فقال الطبيب :

— اسمعا ، لقد دفعت لكما أجركما مقدمًا !

فردّ عليه « أنجون جو » وهو يقترب منه ، وكان الدكتور قد نهض واقفاً :

ـ نعم ، بل فعلت ما هو أكثر من ذلك ؛ فمنذ خمس سنوات طردتنى من بيتكم عندما طلبت منك طعاماً آكله ، وسجننى والدك بتهمة التشرد . هل تحسب أننى نسيت ؟ الآن نستطيع أن نصفّى الحساب بيننا !

وكان يهدّد الطبيب ، ملوّحاً بقبضته فى وجهه ! . . . ولكن هذا ضربه فجأة ، فوقع على الأرض ، وأسرع « بوتر » فألقى بخنجره على الأرض ، وصاح :

ـ قف ، لا تضرب زميلى !

والتحم مع الطبيب فى مشاجرة حامية ، وهنا وثب « أنجون جو » ناهضاً على قدميه ، ثم التقط خنجر « بوتر » وراح يدور حول المتشاجرين ، منتظراً الفرصة ليضرب ضربته !

استمرت المعركة بين الطبيب و « بوتر » فترة من الوقت ، ثم استطاع الطبيب فى النهاية أن يضرب « بوتر » ضربة قوية ، سقط على أثرها مغمى عليه . . . وفى اللحظة نفسها ضرب « أنجون جو » الطبيب بخنجر « بوتر » ، فسقط الطبيب . . . ميتاً !

وهنا أسرع « أنجون جو » بوضع الخنجر فى يد « بوتر » ، ثم جلس فى هدوء ، ينتظر . . .

ومضت لحظات ، أفاق « بوتر » بعدها من إغمائه ، وأخذ ينظر حوله فى ذهول ، ثم قال :

— ماذا حدث يا « جو » ؟

فأجاب : « جو » فى بساطة :

— ألا تعلم ماذا حدث ؟ . . . إنك قتلت الطبيب يا « بوتر » !

وكأنما لم يصدّق « بوتر » ما سمعه ، فأخذ يهزّ رأسه ويقول :

— أنا قتلت الطبيب ؟ غير معقول يا « جو » ! إننى لم أمسك خنجراً فى حياتى !

— إن إنكارك لا يفيد يا « بوتر » ، فهاهوذا الخنجر فى يدك ، وهو دليل كاف على أنك قتلته !

وأخذ « بوتر » يرتعش وهو يردد :

— يا إلهى ! . . ماذا فعلت ؟ إننى لم أقصد قتله مطلقاً ، قل لى كيف حدث هذا يا « جو » ؟

وقال « جو » فى هدوء :

— لا تقلق بالك ، إنك قتلته فى حالة « دفاع عن النفس » !

فقال « بوتر » وهو يرتعد بشدة :

— إننى لا أذكر شيئاً ، فقد كنت مخموراً !

واستمر يرتعد ويقول :

— إننى لم أمسك بخنجر من قبل يا « جو » ! قل لى إنك لن

تُفشى سرّى . أتقسم لى على ذلك يا « جو » ؟

وركع المخلوق البائس على ركبتيه أمام القاتل الحقيقى ، وضمّ يديه فى توسُّل وضراعة . . .

فأجابه « أنجون جو » :

ــ كلا ، لن أبلغ أحداً بما حدث ، فقد كنتَ مضطراًّ إلى ذلك !

فصاح « بوتر » :

ــ آه ، يالك من ملاك يا « جو » ! سأدعو لك طول حياتى !

وغلبه البكاء وأخذ يرتعش ، فقال له « جو » :

ــ لا وقت للبكاء الآن ، يجب أن نترك هذا المكان بسرعة ، وليسِرْ كلّ منا فى طريق مختلف !

ونهض « بوتر » وخطا خطوات متعثرة فى أول الأمر ، ولكنها سرعان ما تحولت إلى عدو سريع . أما « جو » فقد وقف فى مكانه ينظر إليه ، وقال فى نفسه :

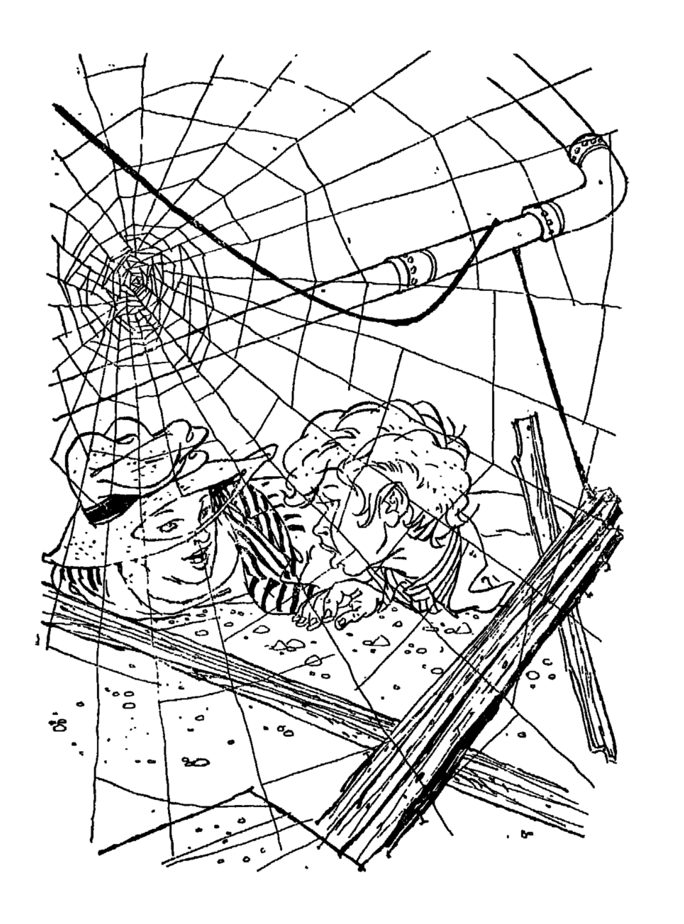
ــ إنه ذاهل عن كل شىء ، فلم يفطن إلى الخنجر الذى تركه خلفه ، ولن يعود إليه ، وهو الدليل القوى على أنه مرتكب الحادث !





٥

وكان « توم » ، و « هوك » يراقبان ما يجرى أمامهما ، وقد استولى عليهما الفزع الشديد ! ... وبعد أن خلت المقبرة من الرجلين أسرع الصبيَّان يجريان . . . وعندما وصلا إلى أحد الأكواخ التى تقع خارج القرية ، اندفعا إلى الداخل ، وارتميا على الأرض ، وهما فى أشد حالات التعب والإجهاد . وبعد قليل همس « توم » فى أذن « هوك » :



— قل لى يا « هوك » ، ماذا يحدث بعد ذلك ؟

— إذا كان الدكتور « روبنسون » قد مات ، فلا بد من إعدام القاتل !

— ومن يشهد على القاتل ؟ هل نشهد عليه نحن ؟

واحتار « توم » و « هوك » فيما يفعلانه بعد أن شاهدا « أنجون جو » يقتل الطبيب ، ثم يوهم صديقه « بوتر » بأنه هو القاتل ! . . . وفى النهاية اتفقا على عدم إفشاء السر ، وأحضر « توم » قطعة من الخشب كتب عليها بالفحم : « نقسم نحن "هوك فين"، و "توم سوير" على ألا نخبر أحداً بما حدث » . ووقع الصديقان على قطعة الخشب ، وألقياها بجوار حائط . .

* * *

كانت أخبار الجريمة قد انتشرت فى القرية . وعند الظهر قال العمدة إنه سيقبض على القاتل « موف بوتر » الذى وجدت سكينه بجوار الطبيب المقتول !

وذهب « توم » و« هوك » إلى المقبرة مع الناس ليعرفا ما سيحدث . . . ومرّ بعض الوقت ، ثم ظهر العمدة وهو يقبض على « بوتر » . وكان « بوتر » يبدو شاحباً منهاراً ، فى حين وقف القاتل الحقيقى « أنجون جو » فى هدوء يرقب الموقف ، وكأنه لا يعنيه !

وقف « بوتر » يرتعش ، ثم غطّى وجهه بيديه وبكى ، وأخذ يصيح :

— أقسم لكم أننى لم أقتله يا أصدقائى ، أقسم بشرفى ، صدقونى أنا لم أقتله !

ورفع « بوتر » وجهه وأخذ ينظر إلى من حوله فى يأس ،فلما رأى « أنجون جو » صاح موجهـًا الكلام إليه :

— « أنجون » ، قل لهم الحقيقة ، قل لهم إننى لم أقتله !

وانتظر « توم » و « هوك » أن يقول « أنجون » الحقيقة ، ولكنه ظلّ صامتـًا ، فلما جاء وقت التحقيق أكد أن « موف بوتر » هو القاتل !

وأحس « توم » بتأنيب الضمير ، لأنه يعرف الحقيقة ولم يقلها . . . ومرت فترة طويلة وهو لا ينام . وأخيراً هدأت حالته وعاد إلى المدرسة . كان « توم » يشعر بالسعادة وهو ذاهب إلى المدرسة لأنه سيقابل صديقته « بيكى » ، ولكن سعادته انقلبت إلى حزن عندما وجدها متغيبة ، ومرت الأيام بدون أن تعود « بيكى » .

وذات يوم شاهدها قادمة ، فأحسّ بالفرح يغمره ، وأخذ يجرى ويصفّق ويصيح ، ويطارد الأولاد كأنه أحد الهنود الحمر ، ويقفز على السور ويقف على رأسه ، ويمشى على يديه . . !

واقترب « توم » من « بيكى » وهو يواصل ألعابه البهلوانية ، ثم خطف قبّعة أحد الأولاد ، ورمى بها على سطح المدرسة ، واقتحم صفوف مجموعة من تلاميذ المدرسة ، وسقط بالقرب من « بيكى » . . . فاستدارت مبتعدة عنه ، وسمعها تقول :

— إن بعض الناس يظنّون أنهم ظرفاء، ويبالغون فى إظهار ظرفهم!

واحمرّ وجه «توم» خجلا، وأحس بالألم يغمر نفسه، فسار فى طريقه حزينًا مهمومًا . . . حتى التقى «بجو هاربر» الذى كان حزينًا أيضًا. ومشى الولدان يتحدّثان، فقال «جو» إنه يفكر فى أن يذهب إلى مغارة مهجورة، ويعيش فيها كما يعيش الناسك على الماء والخبز الجاف! . . . ولكن «توم» أكد له أن فى الدنيا مباهج أخرى، وأن من الأفضل أن يقوما برحلة طويلة بعيداً عن القرية، يتمتعان فيها بمشاهدة الطبيعة، ويعيشان بعيداً عن الأحزان. ووافق «جو» على فكرة «توم» . . .

وعلى بعد ثلاثة أميال من قرية «سانت بتسبرج» — حيث كانا يعيشان — وفى مكان يتسع فيه نهر «المسيسبى»، كانت هناك جزيرة طويلة لا يسكنها أحد، وتغطّيها الأشجار، وقد وقع اختيار الصديقين على أن يرحلا إلى الجزيرة ويعيشا فيها. وفكر الولدان فى أن يضمّا إليهما «هوك فين»، فلما عرضا عليه الفكرة وافق فى الحال . . . واتفق الثلاثة على أن يلتقوا عند المساء، وأن يجهّز كل منهم أدوات لصيد السمك، وكل ما يستطيع الحصول عليه من طعام.

وعند المساء ذهب «توم» إلى المكان المحدّد، وهو بقعة خالية خارج القرية، حيث كان يوجد «طوف» طويل من الخشب، قرروا الاستيلاء

عليه والإبحار به إلى الجزيرة .

وقف « توم » يحدّق فى الظلام ، وهو يحمل طعامه وبعض الأشياء التافهة التى يحبّها ، وبعد فترة أطلق صفيراً رقيقاً واضحاً ، وجاء الردّ من بعيد ، وسمع من يسأله :

— من هناك ؟

فأجاب « توم » :

— « توم سوير » . من أنتما ؟

— « هوك فن » ، اليد الحمراء .

— « جو هاربر » ، مرعب البحار .

وكانت هذه هى الأسماء الثلاثة التى اختارها الأولاد ليطلقوها على أنفسهم فى رحلتهم البحرية . وعندما وقف الثلاثة معاً ارتفع صوتهم بقسم الإخلاص وهو :

— الحرية !

ركب الأصدقاء الثلاثة « الطوف » الخشبى ، وتولى « توم » القيادة ، وأمسك « هوكى » بالمجداف الأمامىّ و « جو » بالمجداف الخلفىّ . ووقف « توم » وسط الطوف يصدر أوامره ، وقد بدا عليه الجد والاهتمام . . . وفى وسط « الطوف » تكوّمت الأشياء التى أتى بها الأصدقاء . وكان « جو » (مرعب البحار) قد أحضر قطعة لحم ، أما « هوكى » (اليد الحمراء) فقد أحضر مقلاة وبعض الأشياء الصغيرة .

وفى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى رسا « الطوف » على الشاطئ الرملى بجزيرة (جاكون) ، التى اختاروها مقراً لمعسكرهم ، فوضعوا شراعاً فوق المؤونة ليجلب الهواء حتى لا تفسد، وأشعلوا ناراً وضعوا عليها المقلاة وبها قطعة اللحم ، وأعدوا عشاءهم .

وقال « جو » بعد أن أكلوا آخر قطعة من اللحم :

— أليس هذا شيئًا لطيفًا ؟ إننا نشبه القراصنة الآن !

ووافق الصديقان بحماسة على هذه الصفة ، وقال « هوك » :

— ولكن ماذا يعمل القراصنة ؟

وأجاب « توم » :

— إن القراصنة يهاجمون السفن ، ويستولون على ما فيها من أموال ، ثم يدفنون هذه الأموال فى جزيرة بعيدة تملؤها الأشباح !

وقال « جو » وقد أخذته الحماسة :

— وهم يرتدون أفخر الثياب ، ويتحلَّوْن بالذهب والفضة والألماس !

فسأله « هوكى » :

— من ؟

وأجاب « جو » فى انزعاج :

— القراصنة طبعًا !

ونظر « هوكى » إلى ثيابه المهلهلة وقال :

— أظن أننى لا أرتدى من الملابس ما يليق بقرصان ، ولكن على

كل حال لا أملك غيرها .

وأسرع « توم » و « جو» يطمئنان « هوكى » إلى أنه سيرتدى الملابس الفاخرة يومًا ما ، ولا بأس بثيابه هذه الآ ن . . . وبدأت أحاديثهم تقل شيئًا فشيئًا ، وأخذ النوم يتسلل إلى جفونهم ، ولكنهم لم ينسوا أن يرتلوا الصلاة . فقد خشوا أن تنتقم منهم السماء فى حياتهم الجديدة ، إذا أهملوا الواجبات الدينية .





٦

وفى الصباح كان « توم » أول من استيقظ ، وهزّ صديقيه الآخرين فاستيقظا ، وأخذوا جميعـًا يصيحون صيحات الفرح ، وبعد دقيقة كانوا قد خلعوا ملابسهم وقفزوا إلى الماء بالقرب من الشاطئ ، وراحوا يعبثون فى الماء . . . ووجدوا أن طوفهم الخشبي قد ابتعد عن مكانه أثناء الليل .

وخرج الأصدقاء الثلاثة من الماء وهم فى غاية الجوع ، وسرعان ما أشعلوا النار ،

واصطادوا بعض السمك وشووه . . . وبعد أن أكلوا وشبعوا استلقوا في الظل .

. . . وبعد راحة قصيرة قام القراصنة الثلاثة بجولة استكشافية فى الجزيرة ، ثم نزلوا مرة أخرى إلى الماء . وعادوا إلى معسكرهم عند الظهر وهم يشعرون بالجوع والتعب ، فأكلوا طعاماً بارداً . واستلقوا فى الظل يتبادلون الحديث . . . وبعد قليل أخذ الحديث يقل ويتباعد . . . ثم توقف تماماً . وشعر الثلاثة بالوحدة تثقل عليهم وسط السكون المطبق على الجزيرة المهجورة .

وبدأ الحنين إلى بيوتهم يتسلّل إلى قلوبهم ، حتى « هوكى » بدأ يحلم ببراميله الفارغة ، والأرصفة التى تعود أن يقضى عليها أيامه ولياليه . . ولكن أحداً منهم لم يجسر على التعبير عن مشاعره ، حتى لا يتهم بالضعف !

وانقضت مدة طويلة ، ثم بدأ الأولاد يسمعون صوتاً غريباً من بعيد ، وزاد الصوت وضوحاً . . . فصاح « جو » :

— ما هذا ؟

فأجاب « هوكى » :

— يبدو أنه صوت الرعد .

وأنصتوا فترة ، ثم سمعوا الصوت من جديد . . . فقال « هوكى » :

— ليس هذا صوت الرعد بكل تأكيد !

فقال « توم » :

– هيَّا إلى الشاطئ لنرى ماذا هناك .

وأسرع الثلاثة إلى الشاطئ ، وأطلّوا على البحر ، فرأوا قاربًا بخاريًّا على بعد ميل من الجزيرة ، وبدا ظهر القارب مزدحمًا بالركاب ، وبعد قليل انطلقت سحابة من الدخان الأبيض من جانب الزورق ، وتكرّر الصوت الذى يشبه الرعد . . . فصاح « توم » :

– لقد عرفت السبب ، لا بد أن شخصًا يغرق !

فقال « هوكى » :

– فعلا ، لقد فعلوا هذا فى العام الماضى عندما غرق « بيل تيرز » فقد أطلقوا قنبلة مدفع على سطح الماء ، فطفا الغريق فوق الماء .

وقال « جو » :

– كم أودّ أن أكون هناك لأعرف من الغريق .

وانتظر الأولاد فترة ، بدون أن يتبادلوا الكلام ، وفجأة صاح « توم » :

– لقد عرفت من الغريق ، إننا نحن الغرقى يا أولاد ، فهم فى القرية يظنون أننا غرقنا ، وهم يبحثون عن جثثنا !

واستمر القارب فترة من الوقت يطلق مدافعه ، ولما حل وقت الغروب اختفى الزورق ، وعاد الأولاد إلى معسكرهم ، فاصطادوا سمكًا ، وطبخوا عشاءهم وأكلوه ، ثم راحوا يفكرون فيما يقال عنهم فى البلدة ، وماذا يفعل أهلوهم ؟

* * *



وعندما بدأ الظلام يخيم على البحيرة ، كفّ الثلاثة عن الكلام ، وأخذوا يحدّقون فى النار الموقدة . وبدا واضحاً أن حماسة الثلاثة قد خمدت ، ولم يستطع « توم » و« جو » أن يمنعا نفسيهما من التفكير فى أسرتيهما . وبدأ الولدان يشعران بالقلق والحزن، أما « هوكى » فسرعان ما استسلم للنوم .

وظل « توم » و« جو » يتحدّثان برهة ، ثم نام « جو » وظل « توم » مستيقظاً . وبعد فترة من الوقت قام « توم » بخفّة ، فأحضر ورقة شجرة كتب عليها كلاماً ، وتركها فى قبعة « جو » ، ووضع فيها أيضاً أشياءه الثمينة – قطعة طباشير ، وكرة مطاط ، وثلاث صفافير – ثم

انطلق إلى الشاطئ فخاض فى المياه متجهـًا إلى شاطئ بلدتهم . . .

أخذ « توم » يسبح حتى وصل إلى مكان منخفض ، فجذب نفسه إلى أعلى ، ووجد نفسه على الشاطئ ، فجرى والماء يقطر من ملابسه . وبعد الساعة العاشرة بقليل كان قد وصل إلى السور الخلفى لمنزل خالته « بولى » ، فتسلـّق السور ، واقترب من البيت ، وأطل من نافذة غرفة الجلوس . . .

رأى الخالة « بولى » جالسة ، ومعها بنت خالته « مارى » ، وأخوه « سدى » ، ووالدة « جو هاربر » . وكان الجميع جالسين بجوار الفراش . فذهب « توم » إلى الباب ، وأخذ يزيح « المزلاج » فى خفـّة ، وفتح الباب فى حذَر شديد — بقدر ما يستطيع الدخول ، زحفـًا على ركبتيه ، من غير أن يلحظ أحد — ودخل .

وصاحت الخالة « بولى » :

— ما الذى يجعل شعلة القنديل تهتزّ هكذا ؟ أعتقد أن الباب مفتوح ! . . . اذهب وأقفله يا « سدى » !

وكان « توم » قد اختفى تحت السرير فى الوقت المناسب !

وقالت الخالة لوالدة « جو » :

— كما قلت لك ، لم يكن « توم » شريراً ، ولكنه كان شقيـًّا ، فيه شيطنة وعفرتة لا أكثر ، ولكنه كان أطيب ولد فى الدنيا !

ثم استسلمت للبكاء !

وقالت والدة « جو » :

ــ هكذا كان ابنى « جو » ، كثير الشيطنة ، ولكنه كان طيبـًا محبـًّا للآخرين ، وكم أنا حزينة لأننى كنت أحيانـًا أعامله بقسوة ، مع أنه كان مظلومـًا !

وبدأت السيدة « هاربر » تبكى بصوت عال . . .

وقال « سدى » :

ــ لقد أصبح « توم » فجأة أطيب ولد ! . . على أى حال أرجو له كل خير !

فصاحت الخالة « بولى » :

ــ لا تقل كلمة واحدة ضد « توم » ، ولا تقلق نفسك من أجله ، وليحفظه الله بعنايته . أيتها السيدة « هاربر » ، لا أعرف كيف أعيش بدونه! لقد كان يملأ علىّ البيت ، مع أنه كان يعذّبنى أحيانـًا بعفرتته !

فقالت السيدة « هاربر » ، وكأنها تواسى نفسها وتواسى الخالة « بولى » :

ــ الرب أعطى ، والرب أخذ . . . آه ، لكننى لا أستطيع تحمل فراقه . . . السبت الماضى أطلق حصاة ، أصابت أنفى ، فضربته بقسوة ! سامحنى الله !

فقالت الخالة « بولى » :

ــ إننى أشعر بما تشعرين به أيتها السيدة « هاربر » ! فأمس

فقط ، ملأ توم فم القطة بدواء مر، فكادت القطة المسكينة تحطم كل شيء في البيت ، وليسامحني الله ، فقد ضربت الولد المسكين على رأسه . مسكين ! مسكين! يرحمه الله !

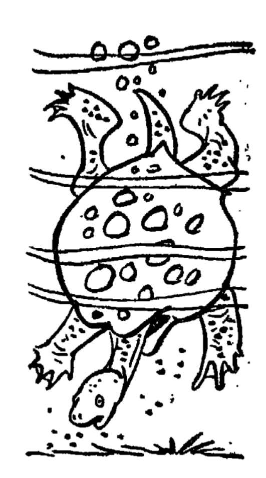
ولم تتحمّل الحالة العجوز هذه الذكريات الأليمة فانهارت ، واستطاع « توم » أن يسمع « ماري » وهي تبكي ، وتذكره بشيء من الخير ، وشعر برغبة قوية في أن يجري ويطوّق خالته بذراعيه من شدّة الفرحة ، ولكنه قاوم هذه الرغبة ، وظلّ ساكنًا حيث هو ، تحت السرير . وظلّ يصغي حتى عرف كل شيء عن حكاية غرقه وهو وزميليه ، وعلم أنه إذا لم تظهر الجثث حتى يوم الأحد فستقام جنازة على أرواحهم في ذلك اليوم !

واستأذنت السيدة « هاربر » ، وغادرت البيت وهي لا تزال تبكي ... أما « سدى » و « ماري » فقد ذهبا إلى الفراش . ثم ركعت الخالة « بولى » وصلّت طويلا طويلا من أجل « توم » ، وهي تبكي .

واضطر « توم » أن يلزم السكون فترة طويلة ، وهو في مخبئه تحت السرير ، حتى بعد أن أوت الخالة إلى فراشها ، لأنها ظلت تتقلب على الفراش وهي تبكي ، وأخيراً استغرقت في نوم عميق ، فتسلّل « توم » من تحت السرير ووقف ينظر إليها ، وقلبه ممتلئ بالشفقة عليها ، وأخرج ورقة الشجر التي كانت معه وكتب عليها « نحن في رحلة » ، ووضعها

بجوار القنديل . ولكن خاطراً خطر له . فنلكأ قليلا وهو يفكر . وبعد دقيقة من التفكير عاد فأخذ الورقة ووضعها فى جيبه ، وتسلل إلى الخارج !





٧

تلمس « توم» طريقه إلى القارب الذى يعبر به الأهالى النهر ، وكان يعلم أن الحارس سيكون مستغرقًا فى النوم . . . وفى جرأة ركب القارب وقاده فى اتجاه الجزيرة ، وعلى بعد ميل من الشاطئ ترك القارب وسبح المسافة الباقية إلى الغابة التى يأوى إليها زميلاه . وكانت الشمس قد طلعت عندما اقترب من المخيّم ، وسمع « جو » يقول :

— أؤكد لك يا « هوكى » أن « توم »

سيعود ، لا بد أنه ذهب إلى البلدة لأمر ما .

فقال « هوكى » :

ـ لا بأس ، المهم أن الأشياء التى تركها ستكون ملكنا ، أليس كذلك ؟

فرد عليه « جو » قائلا :

ـ تقريبًا ، وهو يقول فى الورقة التى تركها لنا إن الأشياء تصبح ملكنا إن لم يعد قبل الإفطار ، فلننتظر قليلا .

وصاح « توم » ، وهو يدخل المخيم :

ـ هأنذا !

وعند الظهر ذهب الأولاد إلى الشاطئ للبحث عن بيض السلاحف الذى تخفيه فى الرمل ، ووجدوا كمية كبيرة منه ، فتناولوا عشاء رائعًا من



البيض المقلى ، وتناولوا إفطارهم من البيض نفسه فى صباح اليوم التالى .

* * *

وبعد الإفطار ذهب الثلاثة يلعبون على الشاطئ ، ويطارد بعضهم بعضًا ، ويتقاذفون بملابسهم . . . ثم ألقوا بأنفسهم فى المياه وهم يتصايحون. وبعد ذلك تصوّروا أنهم يشبهون الهنود الحمر ، بعد أن احمرّت جلودهم من الشمس ، فرسموا دائرة على الرمل ، وأخذوا يرقصون حولها رقصة الهنود ، ثم لعبوا من جديد ألعابًا مختلفة . . . حتى أحسّوا بالتعب ، فجلسوا على الرمال ساكنين ، وقد عاودهم الشعور بالوحدة ، ولا سيما « جو » الذى أصبح يحنّ إلى البيت !

وضعفت روح « هوكى » المعنوية أيضًا ، ولم يكن « توم » أقلّ من زميليه شوقًا وحنينًا إلى البيت ، لكنه اجتهد لإخفاء مشاعره ، وأخذ يفكر فى طريقة تعيد الحماسة إلى صديقيه ، فقرر أن يبوح لهما بسرّه الكبير ، وكيف أن القرية كلها حزينة عليهم . . . ولكنه فى النهاية لم يقل شيئًا ، بل قال وهو يتظاهر بالفرح :

ـــ أراهن أن هذه الجزيرة كانت مأوًى للقراصنة فى وقت من الأوقات . لا بدّ لنا من استكشافها مرة ثانية ، فقد نعثر على كنز مخبوء فيها ، هه ، ما رأيكما ؟

ولم يجب أحد ! . . . وحاول « توم » إغراءهما بهذا الأسلوب مرتين ، ولكنه أخفق . . . أما « جو » فأخذ ينكت الرمل بعصا ، وقد

بدا عليه الحزن ، وأخيراً قال :

ـ يجب أن ننهى هذه المغامرة ، أنا أريد العودة إلى البيت ، فنحن فى عزلة تامة فى هذا المكان !

فحاول « توم » أن يقنع « جو » بالبقاء فى الجزيرة ، قائلا له :

ـ إنك لن تجد مكانًا تسبح فيه بحرية ، وتصطاد السمك ، كما نفعل هنا !

فأجاب « جو » فى كآبة :

ـ لا تهمنى السباحة ، ولا صيد السمك . . . إننى أريد أن أعود إلى البيت .

توم : أنت تريد العودة إلى أمك ، أيها الطفل المدلل !

جو : نعم ! أريد أن أرى أمى .

وقام « جو » متجهًا إلى الشاطئ ، بدون أن يودّع زميليه . . . وخفق قلب « توم » وهو يراه يرحل . . . ولما نظر إلى « هوكى » وجده ينظر إلى الأرض ، ثم قال « هوكى » :

ـ أنا أيضًا أريد العودة يا « توم » ، ومن الأفضل أن تأتى أنت أيضًا معنا ، فسوف تشعر بالوحدة إذا بقيت هنا !

فقال « توم » فى عناد :

ـ لن أعود ، ولتذهب أنت أيضًا !

وأخذ « هوكى » يجمع ثيابه المبعثرة ، ثم خاض فى الماء فى اتجاه

« جو » . فى حين وقف « توم » ينظر فى أسى إلى الولدين وهما يبتعدان ، وكان يتمنى لو توقفا ، ولكنهما واصلا السير فى بطء . . . وأحس « توم » بعناده يلين ، وكبرياته تخونه ، فصاح خلف زميليه :

— انتظرا ! انتظرا ! عندى شيء أريد أن أقوله لكما !

توقف الولدان ، واستدارا ، فأسرع « توم » إليهما . . . فلما اقترب منهما ، بدأ حديثه بصوت متعثر ، فقص عليهما مغامرته فى تلك الليلة التى زار فيها القرية فى أثناء نومهما . . . وظل الولدان يستمعان إليه بدون اكتراث . . . ولكن عندما قال لهما إن القرية كلها تبحث عنهم ، وإن والدة « جو » كانت تبكى بحرقة ، استخفهما الفرح ، وأخذا يقفزان فى الماء ، فقد أحسا أنهما أصبحا أبطالا !





٨

وفى صباح يوم الأحد ، بدأ جرس كنيسة (سانت بتسبرج) يرسل دقاته الحزينة ، وبدأ القرويون يتَّجهون إلى الكنيسة ، وهم يتحدّثون فى أسى عن حادث الأولاد الثلاثة الذين غرقوا ، فقد كانت القرية كلها تعتقد أن « توم » و « هوكى » و « جو » قد غرقوا !

وامتلأت الكنيسة بعدد كبير لم تشهده من قبل ، ودخلت الخالة « بولى » تتبعها « مارى »

و « سدى » ، ثم دخلت أسرة « جو هاربر » ، وكلهم فى الملابس السوداء .

وألقى القسيس الصلاة بين التأوهات والدموع ، ثم أخذ يلقى موعظة تحدّث فيها عن الأولاد المفقودين ، وأخذ يعدّد صفاتهم الحميدة ، ويرسم صورة المستقبل الذى كان ينتظرهم . . . وزاد تأثر الحاضرين ، فاستسلموا للبكاء ، وبكى القسيس نفسه وهو فوق منبره .

وسمع الحاضرون أصواتـًا تأتى من ناحية باب الكنيسة ، ولكن أحداً لم يلتفت إليها . . . ثم فتح الباب ، ورفع القسيس عينيه المملوءتين بالدموع ، ووقف ينظر أمامه وقد أصابته دهشة كبيرة ، ونظر واحد من الحاضرين إلى حيث نظر القسيس ، ثم تبعه الآخرون ، ثم وقف جميع الحاضرين مشدوهين ، فقد كان الأولاد الثلاثة « الميتون » يسيرون فى ممشى الكنيسة ، وفى مقدمتهم « توم » ، يتبعه « جو » ثم « هوكى » يتعثر خجلا فى ملابسه المهلهلة !

لم تتمالك الخالة « بولى » نفسها ، فألقت بجسمها على « توم » ، وفعلت السيدة « هاربر » الشىء نفسه مع « جو » ، وتناثرت القبلات والدموع ، على حين وقف ، « هوكى » جانبـًا لا يعرف كيف يدارى خجله ، وقد أخذت تتجه إليه العيون . خالية من أى ترحيب !

وبدأ « هوكى » ينسحب فى هدوء ، ولكن « توم » لمحه فأسرع إليه وأمسكه ، قائلا لخالته :

ــ يا خالتى « بولى » ، هذا ليس من العدل فى شىء ، لا بد أن يرحب أحد « بهوكى » ، ويظهر سروره برؤيته وعودته !

ــ طبعًا ، طبعًا ، إننى مسرورة جدًّا لرؤية هذا الولد اليتيم المسكين . . .

وغمرت الخالة الطيبة وجه الولد المسكين بقبلاتها ، مما زاد فى ارتباكه .

وفجأة صاح القسيس بأعلى صوته :

ــ صلُّوا شكراً لله على حسناته من أجلنا .

وانهمك الحاضرون جميعًا فى الصلاة ، والتّراتيل التى تعبر عن الشكر والامتنان .

وكان « توم » ينظر حوله ، ويعترف ــ بينه وبين نفسه ــ أن هذه اللحظات هى أروع لحظات حياته !

وعندما انتهى كل شىء ، وعاد « توم » مع خالته إلى البيت ، قالت له الخالة :

ــ كيف طاوعك قلبك على أن تتركنى أتعذب يا « توم » ؟ يالك من ولد قاس على خالتك التى تحبك ؟ !

فأجاب « توم » ، فى لهجة من يعترف بذنبه :

ــ آسف جدًّا يا خالتى .

* * *

عندما عاد « توم » إلى المدرسة بعد مغامرة الجزيرة ، أحسّ أنه أصبح مشهوراً ، حتى إنه لم يهتم كثيراً بمحاولة « بيكى » لَفْت نظره إليها . وقد غاظت هذه الشهرة زميله « ألفريد تمبل » ، فدخل الفصل فى غياب التلاميذ ، وسكب الحبر على كتاب « توم » ، ليعاقبه المدرس ! . . . وبالمصادفة شاهدت « بيكى » « ألفريد » وهو يقوم بهذه المؤامرة ، ولكنها لم تبلغ « توم » ، ثم دخلت هى الفصل وأمسكت بكتاب المدرس ، وأخذت تقلب فيه . وبينما هى مستغرقة فى التفرج على الصور دخل «توم» ، ففوجئت « بيكى » ، وحاولت إخفاء الكتاب ، ولسوء حظها تمزقت إحدى صفحاته ، فأسرعت تضع الكتاب فى درج المدرس وهى غاضبة ، ثم انفجرت باكية وصاحت فى « توم » :

— طبعًا سوف تقول للمدرس ، ولكن هذا لا يهمنى ، لا يهمنى !

ثم انطلقت خارجة ، وتركت « توم » ذاهلا .

وعندما بدأت الحصة ، شاهد المدرس كتاب « توم » الملّوث بالحبر . وبرغم أن «توم» أنكر أنه لّوث الكتاب فإن المدرس عاقبه بشدّة ، ولم تتدخل « بيكى » لإنقاذه ، فقد كانت تظنّ أنه سيقول للمدرس إنها مزّقت كتابه . وعندما اكتشف المدرس هذا التمزيق ، أخذ يسأل التلاميذ واحداً واحداً فأنكروا جميعًا ، ثم بدأ يسأل التلميذات ، فأنكرن



بدورهن ، حتى وقف المدرس أمام « بيكى » وقال :

— يا « بيكى ثاتشر » : هل أنت التى مزّقت الكتاب ؟

وفى هذه اللحظة قفز « توم » واقفًا وصاح :

— بل أنا الذى مزّقته !

وتلقّى « توم » « علقة » أخرى ، عن عمل آخر لم يرتكبه ! ... على حين أخذت « بيكى » تنظر إليه فى شكر وامتنان !

* * *

ومضت أيام ... وتحددت جلسة لمحاكمة « موف بوتر » بتهمة قتل الدكتور « روبنسون » . وأحس « توم » بضميره يؤنبه ، فأسرع لمقابلة « هوكى » وقال له :

— إننى أعتقد أن « موف » سيشنق ، وأنا أشعر بالأسف عليه ، فهو رجل طيب ، وكثيراً ما كان يصلح طائراتى الورق ، ويثبت لى الصنارة فى الخيط .

فقال « هوكى » بدوره :

— لقد أعطانى « موف » مرة نصف سمكة ، مع أن السمكة كلها لم تكن تكفى طعامه !

وبعد حديث طويل ، ذهب الولدان إلى السجن الذى كان « موف بوتر » محبوسًا فيه ، وألقيا إليه من النافذة الضيقة بعض علب السجائر وعيدان الكبريت . وعندما شاهدهما « بوتر » صاح :

— يا لكما من ولدين طيبين ! . بل أنتما أطيب من فى هذا البلد ! تعاليا أسلّم عليكما من خلال القضبان ، إن أيديكما صغيرة وضعيفة ، ولكنها ساعدت « موف بوتر » بقدر ما تستطيع !

وفى اليوم التالى جاء أهل البلدة كلهم ليشهدوا المحاكمة . وأحضر « بوتر » إلى قاعة المحكمة شاحب الوجه ، يائسًا ، وفى يديه القيود الحديدية . وأجلس فى مكان ظاهر ليراه الحاضرون ، وجاء « أنجون جو » القاتل الحقيقى ، وجلس فى الصف الأمامى ، فى هدوء بالغ !

وبدأت المحكمة بسماع الشهود ، الذين قالوا إنهم كانوا يشاهدون الخنجر الذى قتل به الطبيب مع « موف بوتر » ، وإنهم شاهدوا « بوتر » يغتسل فى ساعة مبكرة من صباح يوم الجريمة !

ولم يتكلم محامى « بوتر » مطلقًا ، وكأنه كان يائسًا من إنقاذ المتهم !

ثم وقف ممثل النيابة ، وطالب بإعدام المتهم ، استناداً إلى القرائن الموجودة ضده ! . . . وبدا أن مصير « بوتر » أصبح منتهيًا ، وأنه سيشنق لامحالة . . ! فتأثر الرجال ، وبكت النساء . . . وفجأة وقف محامى « بوتر » وقال لكاتب المحكمة :

— أرجو أن تستدعى « توم سوير » للشهادة !

وبدت الدهشة على وجوه الجميع ، فما دخل « توم » فى هذه الجريمة ؟

وعندما جلس « توم » فى مكان الشاهد ، سأله المحامى :

— أين كنت يا « توماس سوير » فى يوم ١٧ يونية ، حوالى منتصف الليل ؟

ونظر « توم » إلى وجه « بوتر » اليائس ، ثم إلى وجه « أنجون جو » القاسى ، وتمالك نفسه وقال :

— فى المقبرة !

ونظر « أنجون جو » نظرة صارمة إلى « توم » ، وعاد القاضى يسأل « توم » :

القاضى : هل كنت قريباً من قبر « هورى وليامز » ؟

توم : نعم يا سيدى .

القاضى : ارفع صوتك قليلا . إلى أى حدّ كنت قريباً من القبر ؟

توم : قريباً منه كما أنا قريب منك .

القاضى : هل كنت مختبئاً ؟

توم : نعم كنت مختبئاً !

القاضى : أين ؟

توم : خلف شجيرات على حافة القبر .

وأفلتت صيحة خافتة من« أنجون جو» . . . واستمر القاضى يسأل « توم » :

القاضى : هل كان معك أحد ؟

توم : نعم ، يا سيدى ، كنت مع . . .

القاضى : انتظر ، لا داعى لذكر اسم زميلك ، سنحضره فى الوقت المناسب . هل كنت تحمل شيئًا معك هناك ؟

وتردّد « توم » قليلا ، وبدت عليه الحيرة .

القاضى : تكلم يا بنى . ماذا كان معك هناك ؟

توم : قطة ، قطة ميتة فقط !

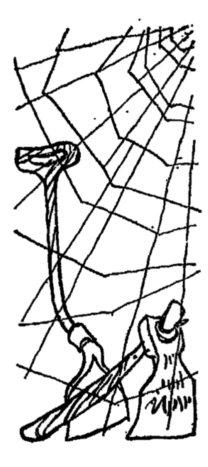
وتعالت الضحكات من الحاضرين .

— سنحضر هيكل هذه القطة . والآن يا بنى ، قل لنا كلّ ما حدث أمامك ، لا تترك شيئًا ، ولا تخف !

وبدأ توم يسرد ما حدث . . فأنصت الجميع ، ولم يعد يسمع إلا صوت « توم » وهو يتحدث ، والجميع ينصتون باهتمام ، حتى لا تفوتهم كلمة مما يقوله ! . . . وبلغ التوتر أقصاه عند ما قال « توم » :

— . . . وعندما رفع الدكتور اللوحة الخشبية وسقط « موف بوتر » ، قفز « أنجون جو » وفى يده الخنجر ، و . . .

وقبل أن يكمل « توم » جملته — وفى سرعة البرق — قفز « أنجون جو » من نافذة المحكمة ، شاقًّا طريقه وسط الذين وقفوا لمنعه من الفرار ، واختفى فى لمح البصر !



٩

وأصبح « توم » بطلا فى نظر القرية ، وأصبحت أيامه أياماً مجيدة ! . . . ولكن لياليه كانت مفزعة ، فقد ملأ « أنجون جو » أحلامه ، وعانى « هوكى » المسكين من الرعب مثلما عانى « توم » . وأعلنت السلطات عن مكافأة للقبض على « أنجون جو » . . . وبحثت عنه فى كل مكان ، ولكن بدون فائدة !

وتأكد « توم » أنه لن يعرف الطمأنينة حتى

يقبض على « أنجون جو » ! . . . ولكن الأيام استطاعت أن تعيد الهدوء إلى نفسه ، تدريجًا . وبعد أسابيع عاد إلى حالته الطبيعية .

والتقى « توم » ، « بهوكى » ذات يوم ، وقرر الاثنان البحث عن كنز مدفون كانت القرية تتحدث عنه ، ولكن أحداً لم يكن يعرف مكانه بالضبط . وأخذ الصديقان يبحثان عنه فى كل مكان ، يومًا بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ، ولكن من غير نتيجة . . . وأخيراً قرر « توم » و « هوكى » أن يبحثا عنه فى البيت المسكون ، وهو بيت مهجور يظن أهل القرية أن الأرواح الشريرة تعيش فيه !

وبعد ظهر أول أيام الأسبوع ، وصل الولدان إلى هذا البيت الغريب ، ومعهما فأس ومجرفة . وكان السكون الغامض المخيف يحيط بالبيت ، فأخذا ينظران داخله فى حذر ، فرأيا الأعشاب تنمو على أرضه المهجورة المتربة ، وشاهدا فى الداخل مدفأة قديمة ، ونوافذ عارية ، وسلالم متهدمة ، وكان نسيج العنكبوت يغطى كل شيء .

دخل الولدان البيت فى شيء من الخوف ، وأخذا يتلفتان حولهما ، ثم ازدادت جرأتهما ، فألقيا أدواتهما فى أحد الأركان ، وصعدا السلم . وجد الصديقان الطابق الأعلى متهدمًا كالطابق الأسفل تمامًا . ورأيا دولابًا كأنه يحوى سرا ، لكن عندما فتشاه لم يجدا فيه شيئًا . وكانا على وشك أن ينزلا ، ليبدآ الحفر ، عندما همس « توم » :

— هس !

فسأله « هوكى » فى همس :

ــ ماذا ؟

ــ اسكت أيها الغبى ، إنى أسمع صوت أقدام تقترب من الباب !

وتمدَّد الولدان على الأرض ، وعيونهما تنظر من خلال الثقوب ، وقد استولى عليهما الخوف . ودخل رجلان ، كان أحدهما إسبانيًّا يعرفه الولدان ، وهو رجل عرف عنه أنه أصم أبكم ، وكان قد تردَّد مرتين على القرية فى المدة الأخيرة ، له لحية بيضاء طويلة ، ويتدلَّى شعره من تحت



قبعته ، وقد وضع على إحدى عينيه عصابة سوداء . أما الرجل الآخر فكان له مظهر رجل شرير ، وهو يرتدى ملابس ممزقة ، ولم يكن الولدان يعرفانه . وجلس الرجلان على الأرض فى مواجهة الباب .

وقال الرجل الممزق الثياب :

ـــ كلا ، لا أحب هذا ، فإنه عمل خطر !

وصاح الإسبانى الذى كان معروفًا بالصمم والبكم ، مما أدهش الولدين :

ـــ يا لك من جبان !

وعرف الولدان من صوت الإسبانى الذى كان يتظاهر بالصمم والبكم أنه هو نفسه « أنجون جو » ـــ القاتل الهارب ! ـــ فدبّ الخوف والفزع فى قلبيهما !

وأخرج الرجلان شيئًا من الطعام ، وانهمكا فى الأكل . وبعد فترة طويلة من الصمت ، قال « أنجون جو » :

ـــ اسمع ، عد إلى أعلى النهر ، وانتظرنى هناك ، وسنقوم بالعمل الخطر بعد أن أقوم بجولة استطلاعية ، وأفكر فى الأمر مرة أخرى . وبعدها نهرب إلى « تكساس » .

وفكر قليلا ، ثم استطرد يقول :

ـــ ماذا نفعل بالصّرة التى معنا ؟

وأجابه الآخر :

— لا أعرف ، نتركها هنا كما نفعل دائماً ، لا داعى لأخذها معنا حين نذهب إلى الجنوب ، فليس فيها غير ٦٥٠ قطعة من الفضة .

وقال « أنجون جو » :

— هذا صحيح ، ولكنها أحسن من لا شىء . هيا ندفنها ، هيا نحفر حفرة عميقة لندفنها فيها !

وقال الآخر :

— فكرة صائبة .

وعبر الرجل الحجرة ، وانحنى إلى الأرض ، وخلع بضع بلاطات ، وأخرج حقيبة كانت تسمع منها شخشخة مثل شخشخة النقود الفضية . وأخرج منها عشرين أو ثلاثين دولاراً لنفسه ، ومثلها « لأنجون جو » ، ثم سلم الحقيبة « لأنجون » الذى كان راكعاً على ركبتيه فى الركن الآخر ، وهو يحفر حفرة لدفن الحقيبة .

ونسى الولدان خوفهما بعض الوقت ، وهما يراقبان ما يجرى أمامهما ، وكانا يراقبان كل حركة فى اهتمام وشغف — فقد ابتسم لهما الحظ فجأة ، وساق لهما ثروة تقدر بستمائة دولار ، وهى تكفى لجعل اثنى عشر ولداً من الأغنياء — وأخذ الولدان يتبادلان نظرات ذات معنى ، من وقت لآخر . وكانت كل نظرة تقول :

— ألست سعيداً بوجودنا هنا الآن ؟

واصطدمت سكين « أنجون » فى شىء صلب ، فقال :

ـــ ما هذا ؟ . . إنه صندوق ! . . هيا نرفعه معًا لنرى ما فيه . انتظر لحظة . لقد وقعت على فتحة فى الصندوق !

ومد يده من خلال الفتحة ، ثم أخرجها وصاح :

ـــ ياه ! إنه ممتلئ بالنقود !

وفحص الرجلان النقود التى ملأت يدى « أنجون » ، فإذا هى من الذهب !

وقال زميل « أنجون جو » :

ـــ هيا نخرجه بسرعة ، لقد رأيت مجرفة قديمة بين الأعشاب فى الركن . لقد رأيتها منذ دقيقة !

وجرى الرجل فأحضر فأس الولدين ومجرفتهما ، وتناول « أنجون » الفأس ، وفحصها ، ثم هز رأسه ، وتمتم بشىء ، ثم بدأ العمل . وبعد قليل أزاح الرجلان التراب من فوق الصندوق ، ولم يكن صندوقًا كبيراً ، وكانت تحيط به أطواق من الصلب البالى .

وصاح « أنجون جو » :

ـــ فى الصندوق آلاف الدولارات يا « بارد » !

ثم أردف قائلا :

ـــ كانوا يقولون دائمًا إن عصابة « موريل » زارت هذا المكان فى صيف أحد السنين ، ولا بد أنها تركت هذا الصندوق هنا !

فقال له « بارد » بارتياح :

— فى هذه الحالة لا داعى لأن نقوم بالمغامرة التى اتفقنا عليها !

فقطب « أنجون جو » ما بين حاجبيه وقال :

— إنك لا تعرفنى . . . إننى لن أقوم بهذه المغامرة بقصد السرقة ، ولكن بدافع الانتقام !

فسأله « بارد » :

— إذن ماذا نفعل بهذه الثروة ؟ هل ندفنها ثانية ؟

فأجاب « جو » :

— لا ، فهذه الفأس عليها تراب جديد ، فلا بد أن إنساناً ما كان هنا . سننقل الصندوق إلى مغارتى .

— هل تعنى رقم واحد ؟

— لا ، بل رقم اثنين !

ونهض « أنجون جو » وقال :

— ترى من أحضر هذه الفأس إلى هنا ؟ أتعتقد أن أصحابها موجودون فى الطابق العلوى الآن ؟

وفزع الولدان !

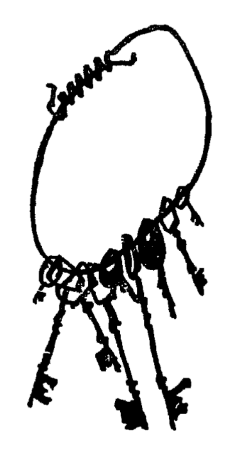
ووضع « أنجون جو » يده على مقبض خنجره ، ووقف لحظة متردداً ثم استدار ناحية السلم ، وبدأ يصعده . وكان الولدان على وشك أن يقفزا داخل الخزانة ، عندما سمعا صوت خشب قديم يتكسر ، ثم انهار السلم ، ووقع « أنجون جو » على الأرض وسط الحطام . واستجمع نفسه وهو

يسب ويلعن ، فقال زميله :

ــ ما الداعى لكل هذا ؟ . . إذا كان هنا أى إنسان ، فليتبعنا ، وسيرى ماذا نفعل به ! . . . إن الظلام سيهبط بعد ربع ساعة ، وعندئذ دعهم يتبعونا إذا شاءوا !

وبعد قليل خرج الرجلان من المنزل أثناء الغروب ، واتجها صوب النهر وهما يحملان صندوقهما الثمين !





١٠

نهض « توم » و « هوكى » وهما يشعران بالتعب والإرهاق . ولم يفكرا طبعًا فى ملاحقة الشريرين توًّا ، فيكفى أنهما نجوا بحياتهما . وسار الولدان صوب البلدة عن طريق التل ، وهما يشعران بالغيظ والضيق . الغيظ من الحظ السيئ الذى جعلهما يتركان أدواتهما حيث اكتشفها المجرمان ، والضيق لضياع هذه الثروة منهما !

وارتعدا عندما تذكرا ما عزم عليه «أنجون‌جو »

من الانتقام . ترى هل كان يعنى الانتقام من « توم »، لأنه شهد ضده فى المحكمة ؟ على أى حال عزم الولدان على مراقبة « انجون جو » ، وملاحقته حتى المخبأ الذى سيخفى فيه الصندوق !

وفى صباح اليوم التالى ، استيقظ « توم » — بعد ليلة ملأى بالأحلام المزعجة — وتناول إفطاره بسرعة ، ثم أسرع للبحث عن « هوكى » . وجلس الولدان يبحثان معًا المغامرة المقبلة ، وبخاصة ما يتعلق بمخبأ الكنز الذى سماه « أنجون جو » : المخبأ رقم ٢ .

واتفقا على أن يبحثا فى الحانات عن كل غرفة تحمل رقم ٢ .

وفى الحال ذهب « توم » إلى البلدة ، فوجد فى الحانة الأولى أن الغرفة رقم ٢ يشغلها محام شاب .

وفى الحانة الثانية وجد أن الغرفة رقم ٢ يحوطها الغموض . وقال ابن صاحب الحانة « لتوم » إن الغرفة مقفلة دائمًا ، وإنه لم ير أحداً يدخلها أو يخرج منها إلا أثناء الليل . وهو لا يعرف السبب ، وقد لاحظ أن الغرفة كانت مضاءة فى الليلة الماضية .

وعاد « توم » إلى « هوكى » وأخبره بما سمع ، وقال :

— أعتقد أن هذه الغرفة هى المقصودة !

فقال له « هوكى » :

— محتمل يا « توم »، والآن ماذا تنوى أن تفعل ؟

اتفق « توم » و « هوكى » على غزو الغرفة رقم ٢ فى الحانة : فقال

« توم » إنه سيحضر كل مفاتيح خالته ليجربها فى فتح الباب ، وطلب من « هوكى » أن يحضر هو الآخر كل المفاتيح التى يمكنه الحصول عليها .

وافترق الصديقان على اتفاق أن ينفذا الخطة فى أول ليلة لا يظهر فيها القمر ، حتى يتخذا من الظلام ستاراً لدخول الغرفة . ومضت ليال مقمرة ، ثم جاءت ليلة غاب فيها القمر ، فأسرع « توم » بالخروج من بيت خالته ومعه مصباح من الصفيح ، والتقى بـ « هوكى » عند الحانة .

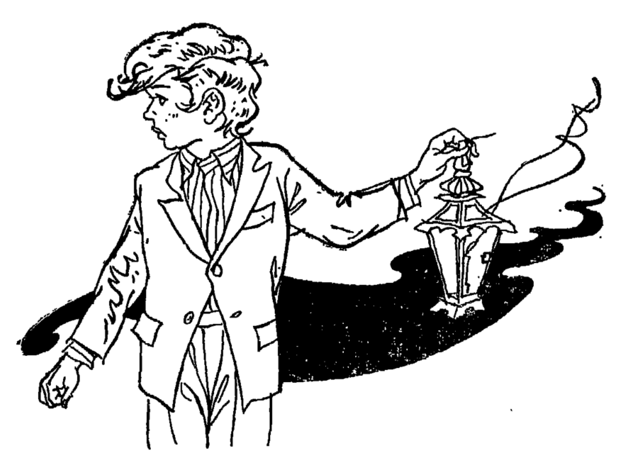
وعندما أطفئ آخر نور فى الحانة ، تسلل « توم » وحده إليها لتفتيش الغرفة رقم ٢ ، ووقف « هوكى » يرقب الطريق . ومضى الوقت و « هوكى » قلق على صديقه ، يخشى أن يكون قد أصابه مكروه . وبعد فترة طويلة ظهر « توم » وهو يجرى ويصيح :

ــ اجر يا « هوكى » ! . . . اجر بأقصى ما تستطيع ، لتنجو بحياتك !

انطلق « هوكى » يجرى كالصاروخ ، وخلفه « توم » ، ولم يتوقف الولدان إلا عند حظيرة الماشية المهجورة التى تقع خارج قريتهما . وما كادا يدخلانها حتى انطلق دوىّ الرعد فى السماء ، ثم انهمر المطر غزيراً .

وقف « توم » لاهث الأنفاس ، يصف لـ « هوكى » ما حدث :

ــ لقد كان كل شىء فظيعاً يا « هوكى » ، لقد جربت مفتاحين



بكل ما أملك من خفة يد ، ولكنهما لم يدورا فى القفل ، وبدا لى أنهما أحدثا صوتًا عاليًا ، فجزعت . وبدون أن أدرى ما أنا فاعل ، مددت يدى وأمسكت بمقبض الباب . . . فانفتح الباب بسهولة — إذ لم يكن مقفلا بأى قفل — ودخلت بهدوء ، ونظرت أمامى ، فرأيت الهول الأكبر : رأيت « أنجون جو » مستلقيا على أرض الغرفة غارقًا فى النوم ، فأسرعت أجرى .

وسأل « هوكى » :

— وهل استيقظ "أنجون جو" ؟ وهل رأيت الصندوق ؟

فأجابه "توم" :

ـ كلا ، لم يستيقظ ، فقد كان سكران . . . ولم أر الصندوق ، فقد كانت الغرفة حافلة بالزجاجات وبراميل الخمر ، ولا بد أن بكل حانة غرفة مثلها .

وبعد مناقشة ، اتفق الصديقان على ألا يذهبا إلى الغرفة مرة أخرى ، إلا إذا رأيا « أنجون جو » يغادرها ، حتى لا يقعا فى يده ! . . . وكان على «هوكى» أن يقوم بالمراقبة ليلا ، وينام نهاراً ، فإذا رأى « أنجون جو » يغادر الغرفة فعليه أن يسرع إلى « توم » ويطلق صفيراً تحت نافذة غرفته .

وفى الصباح علم « توم » أن « بيكى » قررت القيام برحلة فى اليوم التالى مع بنات وأولاد آخرين إلى غابة بها كهف ومغارات تستحق المشاهدة ، فأسرع يشترك فى الرحلة .

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، وحوالى الساعة العاشرة ، تجمع الأولاد والبنات فى بيت القاضى « ثاتشر » ـ والد « بيكى » ـ وأخذت السيدة « ثاتشر » تنصح ابنتها « بيكى » ، فقالت لها :

ـ إنكم لن تعودوا إلا متأخرين ، ومن الأفضل بعد عودتك أن تقضى الليلة مع بعض زميلاتك اللواتى يسكن بجوار مرسى القوارب .

فقالت « بيكى » :

ـ إذن سأقضى الليلة عند « سوزى هاربر » .

وفى الحال بدأ جميع الأولاد يحملون سلال الطعام ، فى طريقهم إلى مرسى الزورق البخارى . وعندما اكتمل عددهم بدأت الرحلة .

وأخذ « توم » يحدث « بيكى » قائلا :

ــ بعد عودتنا من الرحلة تعالى نتسلق التل ، ونذهب إلى بيت الأرملة « دوجلاس » ، فهى تجيد صناعة « الآيس كريم » ، وسترحب بنا .

فقالت « بيكى » :

ــ فكرة رائعة يا « توم » ، ولكن ماذا تقول والدتى ؟

ورد « توم » فى إقتناع :

ــ لن تقول شيئًا طبعًا ، إن كل ما يهمها هو أن تقضى الليلة فى مكان أمين ، وأراهن أنها كانت ستنصحك بالذهاب إلى الأرملة « دوجلاس » ، لو خطرت لها هذه الفكرة !

وأمام هذا الرأى المعقول ، وافقت « بيكى » . وقرر الاثنان إخفاء برنامج هذه الزيارة عن بقية الأولاد .

وفجأة خطر لـ « توم » أن « هوكى » قد يحضر هذه الليلة إلى منزل الخالة « بولى » ليذهبا معًا لإحضار صندوق الذهب . . . وأخذ القلق يستولى عليه ، ولكنه قال لنفسه :

ــ هذا أمر بعيد الاحتمال ، فإن « هوكى » لم يظهر فى الليلة الماضية ، ولعله لن يحضر هذه الليلة أيضًا .

وهكذا قرر « توم » أن يستمتع برحلته ، وأن ينسى كل شىء عن

صندوق الذهب فى تلك الليلة !

* * *

بدأ « هوكى » حراسته فى الوقت الذى أقلع فيه الزورق البخارى ، عائداً بالأولاد من رحلتهم . وكانت الليلة مظلمة وغائمة . وجاءت الساعة العاشرة ، ثم الحادية عشرة ، وأطفئت أنوار الحانة ، ونامت القرية .

وانتظر « هوكى » وقتاً ، بدا له طويلا للغاية ، بدون أن يحدث شيء ! . . وفجأة ، التقطت أذناه صوتاً ، وفى قفزة واحدة كان « هوكى » منزوياً وراء ركن مخزن الطوب . . . وفى اللحظة التالية مر به رجلان ، وبدا أن واحداً منهما يحمل شيئاً تحت إبطه . لا بد أنه صندوق الكنز . وحدث « هوكى » نفسه : يجب استدعاء « توم » فوراً ، فالرجلان سيذهبان بالصندوق ، ولن نعثر عليهما مطلقاً بعد الآن !

وتسلل « هوكى » خلفهما ، محتفظاً بمسافة بينه وبينهما — حتى لا يشعرا به — وخرج الرجلان خارج القرية ، ثم أخذا الطريق الذى يؤدى إلى تل « كارديف » . وصعدا التل حتى وصلا إلى قمته . . . وعند القمة سارا فى ممر تحجبه الأعشاب الطويلة ، وسرعان ما اختفيا عن الأنظار !

وأسرع « هوكى » الخطى ليقرب المسافة بينه وبين اللصين ، وكان يرهف أذنيه ليسمع وقع خطواتهما . وبعد فترة من السير ، اكتشف « هوكى » أنهما على بعد بضع خطوات من الطريق الذى يؤدى إلى أرض

السيدة « دوجلاس » . وسمع « هوكى » صوت « أنجون جو » يقول :

ـ لعنة الله عليها ! يبدو أن معها ضيوفًا ، فبيتها لا يزال مضاء، مع أن الوقت متأخر !

وردّ عليه زميله قائلا :

ـ إننى لا أرى أحداً .

وأدرك « هوكى » فى الحال سرّ الانتقام الذى كان « أنجون جو » يتكلم عنه فى البيت المهجور . وانتابت قلب « هوكى » قشعريرة باردة !

أتراهما ذاهبان لقتل السيدة « دوجلاس » ؟

وقال « أنجون جو » :

ـ دقق النظر جيداً ، ألا ترى أحداً ؟

وأجابه زميله :

ـ نعم ، يوجد بالفعل بعض الناس فى البيت ، من رأيى التخلى عن هذه المهمة الآن !

فقال « أنجون جو » :

ـ أأتخلى عنها وأنا راحل عن هذه البلدة إلى الأبد ؟ كلا ، سوف أنتقم ، فقد حبسنى زوجها بتهمة التشرد ، وجلدنى أمام السجن كما يجلد الحصان ! . . . سوف أنتقم منها ، وقد أحضرتك معى لتساعدنى ،

وسأتركك تستولى على حاجياتها !

فقال له زميله :

ـ حسنًا ، ما دمت مصرا على هذا فلنسرع .

ـ سننتظر حتى يخرج الزوار وتطفأ الأنوار ، ولا داعى للعجلة !

وكان « هوكى » يستمع إلى هذا الحوار وقد أمسك أنفاسه ، ثم خطا إلى الوراء فى حذر شديد ، واستدار . . . وعندما شعر أنه أصبح فى أمان ، أطلق ساقيه للريح منحدراً إلى أسفل التل ، حتى وصل إلى أقرب بيت صادفه ، وكان بيت أسرة « ويلشمان » ، فأخذ يدق بابه بكل قوة . وسرعان ما برز رأس « ويلشمان » ، ورأى « هوكى » ابنيه من النافذة وهما يصيحان :

ـ من هناك ؟ من يدق الباب ؟ ماذا تريد ؟

ـ أنا « هكلبيرى فن » ، أدخلونى بسرعة !

فقال الأب :

ـ إنه « هكلبيرى فن » فعلا ، وهو ليس من الأشخاص المرغوب فيهم ، ولكن أدخلاه ، لنرى ماذا يريد .

وكان أول شىء قاله « هوكى » عندما دخل :

ـ أرجوكم ألا تقولوا مطلقًا إننى أبلغتكم ، أرجوكم ، وإلا قتلت !

وأخذ « هوكى » يتحدث إلى أسرة « ويلشمان » وهو لاهث الأنفاس :



١١

وبعد ثلاث دقائق كان « ويلشمان » وولداه يصعدون التل وقد تسلحوا جميعاً بالمسدسات والبنادق ، ووصلوا إلى الممر الذى تغطيه الأعشاب ، وهم يمشون على أطراف أصابعهم ، وفى أيديهم السلاح — استعداداً لإطلاق النار — وكان « هوكى » يرشدهم ، ولكن عندما اقتربوا من المكان الذى ترك فيه المجرمين منذ قليل ، تركهم « هوكى » يتقدمون ، واختبأ خلف صخرة

ـ إن السيدة « دوجلاس » تعطف عليّ فى بعض الأحيان ، وأريد أن أقول لكم شيئًا ، وسأقوله إذا وعدتمونى بألا تقولوا إننى الذى أبلغتكم !

وصاح « ويلشمان » العجوز :

ـ يبدو أن الولد سيبلغنا شيئًا خطيراً ، وإلاّ ما اضطرب هكذا . . اطمئن يا بنى ، وقل لنا كل شىء !





كبيرة ، وارهف أذنيه . ومرت فترة سكون . . وفجأة دوى صوت الرصاص ، وانطلقت صيحة عالية . . .

ولم ينتظر « هوكى » حتى يعرف ما حدث بالتفصيل ، فقد قفز ؛ وانحدر إلى أسفل التل فى سرعة عظيمة !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، تناول « هوكى » طعام الإفطار على مائدة « ويلشمان » ، وعرف كل ما حدث : فقد فر المجرمان ناجيين بحياتيهما ، وتركا خلفهما حزمة فيها الأدوات التى كانا ينويان استعمالها فى الجريمة . . . وشعر « هوكى » بالارتياح عندما علم بفرار المجرمين ، والعثور على الأدوات التى كانا سوف يستخدمانها فى جريمتهما المتوقعة .

واخترع « هوكى » قصة تفسر سبب تعقبه لهذين المجرمين ، ولكن لسانه خانه ، وقال إن أحد المجرمين هو فى الحقيقة « أنجون جو » المجرم الهارب ! . . . ولم يستقر « هوكى » حتى وعده « ويلشمان » وولداه بأنهم لن ينطقوا لأحد بحرف عن هذا الجزء من القصة !

ولما انتهى الجميع من تناول الإفطار ، سمعت دقات على الباب ، ودخل عدد من الرجال والنساء بينهم السيدة « دوجلاس » . وأسرع « هوكى » بالاختفاء فى الوقت المناسب !

وعندما أخذت السيدة « دوجلاس » تشكر « ويلشمان » ، قال لها :

— لا داعى لهذا الشكر يا سيدتى ، فهناك إنسان أحق بهذا الشكر منى ومن ولدىّ ، ولولاه ما كنا ذهبنا إلى أرضك ، ومنعنا الجريمة فى الوقت المناسب ، ولكنه للأسف يرفض إذاعة اسمه !

وقد أثار كلام « ويلشمان » مزيداً من حب الاستطلاع ، ولكنه لم يزد حرفًا واحداً على ما قال ، برغم أنه كان يعيد القصة على كل زائر جديد . وكانت هذه الحادثة مثار الأحاديث فى الكنيسة فى الصباح ، وبدا أنه لا موضوع يستحق الكلام أكثر منها . ولكن بعد انتهاء الموعظة ، وقفت السيدة « ثاتشر » عند الصف التى تجلس فيه المسز « هاربر » وسألتها :

— هل قررت ابنتى « بيكى » النوم طول النهار ؟

— ابنتك « بيكى » ؟ . . ماذا تقصدين ؟

فأجابت السيدة « ثاتشر » وقد بدت عليها الدهشة :

— نعم ابنتى ، ألم تقض معكم الليلة الماضية ؟

— كلا ، لماذا ؟

ولم تحتمل السيدة « ثاتشر » الصدمة ، فجلست متهالكة . . . ولم تلبث أن وصلت الخالة « بولى » ، فقالت بدورها :

— صباح الخير ، لم يأت « توم » الليلة ، وأعتقد أنه قضى الليلة عندكم يا مسز « ثاتشر » !

لكن السيدة « ثاتشر » هزت رأسها بالنفى ، فى حين عادت السيدة

« هاربر » تسأل خالة الصبي ، في شيء من القلق :

– تقولين إنه لم يعد إلى البيت في الليلة الماضية ؟

وسألت الخالة « بولى » « جو هاربر » ، صديق « توم » :

– ألم تر « توم » هذا الصباح يا « جو » ؟

وبدأ القلق يتسرب إلى نفس الخالة « بولى » ، عندما رد عليها جو :

– كلا ياسيدتى !

فسألته :

– متى رأيت « توم » آخر مرة ؟

وحاول « جو » أن يتذكر متى رأى « توم » لآخر مرة ، ولكنه لم يكن متأكداً . وأخذت الخالة « بولى » تسأل الأطفال الذين اشتركوا فى الرحلة طفلا طفلا ، ثم سألت المدرسين ، ولكنهم جميعاً أكدوا أنهم لم يروا « توم » و « بيكى » فى الزورق البخارى فى طريق العودة من الرحلة !

وأخيراً صرح أحد الأطفال بأن « توم » و « بيكى » لا يزالان فى الكهف ، فأغمى على المسز « ثاتشر » ، وأخذ الخالة « بولى » تبكى ، وتلوح بيديها فى عصبية . وانتقل الخبر المثير من منزل إلى منزل ، ومن جماعة إلى جماعة ، ومن شارع إلى شارع ! . . . وبعد خمس دقائق كانت الأجراس كلها تدق فى قوة وعنف ، واستيقظت البلدة كلها !

ونسى الناس أمر اللصين . وأسرجت الخيول ، وأعد الزورق البخارى للإبحار فى أقل من نصف ساعة ، وانطلق أكثر من مائتى شخص فى طريقهم إلى الغابة !

وبدت القرية بعد ظهر ذلك اليوم وكأنها خالية من السكان . . . وفى الليل ظل الناس ساهرين فى انتظار الأخبار . ولكن عندما أشرق الصباح ، كانت الجملة الوحيدة التى وصلت إلى القرية من أهلها الذين يواصلون البحث فى الغابة ، هى :

— أرسلوا مزيداً من الشمع ، والطعام !

وعند الظهر بدأت بعض الجماعات تعود إلى القرية . وقالوا إن أجزاء من الكهف — لم يزرها أحد من قبل — قد فتشت . وفى أحد أركان الكهف رأى الباحثون آثار اسمى « بيكى » و « توم » محفورة على جدار صخرى علق به هباب دخان الشمع . وقال آخرون إنهم كانوا يلمحون ضوءاً يلمع من بعيد فى بعض الأحيان ، ولكن كان يتضح بعد ذلك أنه ضوء فرقة أخرى من الباحثين ، فتحل خيبة الأمل محل الأمل والرجاء !

وكادت السيدة « ثاتشر » أن تفقد صوابها ؛ وكاد يحدث ذلك للخالة « بولى » أيضًا .

ومرت على القرية ثلاث ليال مخيفة ، أحس الجميع بعدها أنهم فقدوا كل أمل ؛ كما فقدوا الحماسة والقوة اللازمتين للبحث !

١٢

ولكن ، ماذا حدث لـ « توم » و « بيكى » ؟

لقد وصلا مع غيرهم من الأولاد والبنات إلى الكهف ، وزارا معهم الأماكن المألوفة ، والأشياء الغريبة . وبعد أن سئما مثل هذه المشاهد ، انفصلا عن باقى الجماعة ، وسارا فى طريق متعرج ، وهما يمسكان الشموع الموقدة ، ويقرآن الأسماء والتواريخ والعناوين المكتوبة بسواد الدخان ، على الجدران الصخرية . . .

وهكذا واصل « توم » و « بيكى » سيرهما من غير أن يلحظا أنهما أصبحا فى جزء مهجور من الكهف ! . . . وتحت نتوء صخرى بارز كتبا اسميهما بسواد الدخان (السناج) ، ثم واصلا سيرهما . وبعد ذلك لمح « توم » سلماً طبيعياً شديد الانحدار ، بين جدارين ضيقين ، وفى الحال تملكته رغبة فى أن يدخل فى عداد « المستكشفين » . . . وسرعان ما أقنع « بيكى » بالانضمام إليه فى مغامرته ، فتركا علامة بسواد الدخان خلفهما — كى يهتدى بها من يأتى فى أثرهما — ونزلا السلم .

وسلكا الطرق الملتوية بعيداً فى أعماق الكهف ، ثم تركا علامة أخرى . . . واستمرا ينتقلان من مغارة إلى مغارة ، حتى وجدا نفسيهما أخيراً بجانب نبع صغير ، فى حجرة صخرية واسعة . ومن سقف الغرفة تدلت الخفافيش المعلقة من أرجلها ، وبدأت المئات منها تهبط ، وهى تزقزق محومة حول ضوء الشمع المتراقص . وأدرك « توم » أنهما أصبحا فى خطر ، فقبض على ذراع « بيكى » واقتادها إلى أقرب دهليز ليحتميا فيه ، وفى نفس اللحظة خبط خفاش الشمعة بجناحيه ، فانطفأت الشمعة !

وطاردت الخفافيش الصديقين مسافة طويلة ، فأخذا يجريان ، حتى وجد « توم » بركة تحت الأرض ، أراد النزول فيها . . . ولكن « بيكى » كانت متعبة ، فجلسا بجوار البركة يستريحان .

وعندئذ ، ولأول مرة ، ثقل السكون والشعور بالوحدة على الصديقين ، فقالت « بيكى » :

— يحسن أن نبدأ فى العودة إلى الخارج . هل تستطيع معرفة الطريق يا « توم » ؟ يبدو لى أن كل الطرق متشابهة ومتشابكة !

وبدأ الاثنان رحلة العودة فى صمت . . . فسارا فى أحد الدهاليز وهما يبحثان عن معالم الطريق التى سلكاها فى رحلة الدخول ، ولكن بلا جدوى ! . . . فأخذ الخوف يتسرب إلى قلب « توم » ، واقتربت « بيكى » منه فى انزعاج ، فقد استطاعت أن تدرك من تصرفاته أنه لا يعرف الطريق إلى خارج الكهف ! . . . فقالت :

— إنك لم تترك علامات للطريق يا «توم» !

فقال لها :

— لقد كنت غبياً ، غبياً للغاية يا « بيكى » . فلم أفكر فى طريقة العودة . والحقيقة أننى الآن لا أستطيع معرفة الطريق ، فكل الطرق مختلطة أمامى !

فصاحت فى ذعر :

— لقد ضللنا الطريق إذن يا « توم » ! . . . ضللنا يا « توم » . . . لن نخرج من هذا المكان المخيف مرة أخرى . لماذا تركنا الآخرين ؟ لماذا ؟

وارتمت « بيكى » على الأرض ، وانفجرت فى نوبة من البكاء . . .

فأسرع « توم » يجلس بجوارها ، وأحاطها بذراعه ، متوسلا إليها ألا تستسلم لليأس بهذه السرعة ، وأن تتمسك بالأمل فى العودة . . . ثم بدأ يلوم نفسه ! . . . وكان لما فعله تأثير طيب . فقالت له « بيكى » إنها ستحاول مواصلة السير . وهكذا تحركا من جديد ، على غير هدى . كل ما كانا يستطيعانه هو السير ، والسير دائمًا !

وبعد فترة من السير بلا هدف ، أخذ « توم » شمعة « بيكى » وأطفأها ! . . . وفهمت « بيكى » لماذا فعل ذلك ، فتبدد كل أمل عندها فى العودة ! لقد كانت تعلم أن « توم » لا يزال يحتفظ بثلاث شمعات أو أربع فى جيبه ، وما دام يريد الاقتصاد فى الشمع ، فمعنى هذا أن الأمل فى الخروج بعيد ! . . . وأخيراً عجزت « بيكى » عن السير ، فقد تغلب التعب على الطفلة المسكينة . فجلست على الأرض ، ولم تلبث أن غلبها النوم . . .

وحين استيقظت ، قال « توم » إنهما يجب أن يسيرا على مهل ، ويستمعا إلى قطرات الماء المتساقطة . فقد يعثران على نبع . وسرعان ما عثرا عليه بالفعل . وقال « توم » إنه قد حان الوقت للراحة ، فأخبرته « بيكى » أنها تستطيع السير مسافة أخرى ، ولكنها اندهشت عندما قال لها « توم » :

— كلا ! لن نسير أكثر من ذلك . . .

وجلسا بجوار النبع ، وثبّت « توم » الشمعة على الجدار المقابل لهما ، بشيء من الطين . . . وقالت « بيكى » :

— أنا جائعة جدا يا « توم » .

وأخرج « توم » من جيبه قطعة من الكعك كانت « بيكى » قد احتفظت بها من طعام الرحلة ، وقسم القطعة . . . فأكلت « بيكى » قطعتها فى سرعة ، ولكن « توم » أخذ يقضم قطعته فى بطء شديد ! . . . وكانت « بيكى » تقترح من وقت لآخر أن يستأنفا السير . . . لكن « توم » لزم الصمت فترة من الوقت ، ثم قال آخر الأمر :

— يا « بيكى » ، هل يمكنك تحمل ما سوف أقوله لك ؟ يجب أن نبقى هنا حيث يوجد ماء لنشرب ، فهذه الشمعة هى آخر شمعة معنا !

واستسلمت « بيكى » للبكاء والنحيب . . . وأخيراً قالت :

— لا بد أنهم سيبحثون عنا يا « توم » !

فأجابها « توم » :

— طبعًا ، بكل تأكيد .

وثبّت الصغيران أعينهما على الشمعة الوحيدة التى بقيت لهما ، وهما يريانها تذوب شيئًا فشيئًا . . . وظلا يراقبانها حتى تلاشت تمامًا ، ثم احتواهما الظلام المخيف !

* * *

لم يعرف أحدهما كم من الوقت مضى عليهما وسط هذا الظلام . . . وبدا لهما الوقت كأنه لا نهاية له ، وكأنهما استيقظا من نوم طويل ليقاسيا الآلام الهائلة : آلام الوحدة ، والخوف ، والشعور بالضياع ، وفقدان الأمل فى النجاة أو الحياة !

ولم يعرفا بالضبط فى أى يوم أصبحا . . . وقال « توم » إن اليوم ربما كان الأحد ، وربما كان الاثنين ، أو الثلاثاء ، وإن البحث عنهما لا بد أنه مستمر . . . وإذا صاح ، فلا بد أن يسمعه أحد !

وصاح بأعلى صوته ! . . . ولكن الصدى الذى تجاوبت به جدران الكهف كان فظيعاً . . . فكفّ عن الصياح ، ولم يحاوله مرة أخرى !

ومرت الساعات ، بلا نهاية ! . . . وكان « توم » قد احتفظ بقطعة صغيرة من الكعك ، فتقاسمها مع « بيكى » ، وأكلاها . ولكنهما شعرا أنهما أصبحا أشدّ جوعًا من ذى قبل !

وهنا خطرت « لتوم » فكرة : كان يعرف أن هناك ممرات جانبية قريبة منهما ، وأن من الأفضل استكشافها ، بدلاً من التكاسل . . . فأخرج من جيبه خيط طيارة ، وربط طرفه فى نتوء ، وتناول هو و« بيكى الطرف الآخر ، وسارا : « توم » فى المقدمة يتحسس الطريق ، و « بيكى» وراءه . . . وبعد حوالى عشرين خطوة ، انتهى الممر بمكان خال ، فركع « توم » على ركبتيه ، وأخذ يتحسس ما حوله ، بقدر ما يستطيع . .

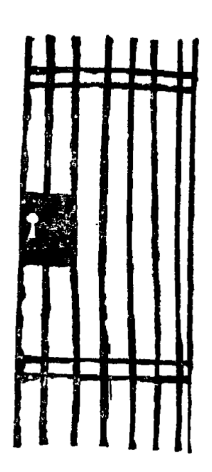
وفجأة ، وعلى بعد عشرين متراً ، برزت يد إنسان من وراء صخرة ،

وهى تمسك شمعة موقدة ! . . وصاح « توم » صيحة الظفر ، وفى الحال تبع اليد جسم صاحبها ، الذى لم يكن سوى : « أنجون جو » !

وشل الولد ، وعجز عن الحركة . ولكن لحسن الحظ ، استدار « أنجون » واختفى عن الأنظار ! . . . وسأل « توم » نفسه عما إذا كان « أنجون جو » قد عرف صوته عندما صاح ؟ ولكن لا بد أن أصداء الصيحة داخل الكهف قد أخفت صوته !

وأضعف الخوف كل عضلة فى جسم « توم » ، ولكن ذهنه ازداد تنبهاً ! . . وقرر « توم » أن يبقى بجانب النبع ، ولا يغامر بلقاء « أنجون جو » ثانية . وحرص على ألا يخبر « بيكى » بما رآه . وبتأثير الخوف ، والإرهاق ، غلبه النوم آخر الأمر . ثم نامت « بيكى » بدورها .. وبعد ليلة طويلة بجوار النبع ، استيقظ الصغيران ، وآلام الجوع الفظيع أقوى من احتمالهما . واقترح « توم » أن يستكشف ممرا آخر ، ولكن « بيكى » قالت إنها ستبقى حيث هى ، تنتظر الموت ، ولن يطول انتظارها إياه ! وقالت لـ « توم » إنه يستطيع أن يستكشف الممر وحده إذا شاء ، ولكنها توسلت إليه أن يعود من وقت لآخر ليتحدث معها .

وأظهر « توم » أنه لا يزال قوىّ الأمل فى النجاة . . . فأخذ الخيط ، وسار يتحسس طريقه فى ممر آخر ، وكان ألم الجوع يعذبه ، والشعور بدنو الأجل يسيطر عليه !



١٣

وفى تلك الأثناء كانت قرية « سانت بتسبرج » لا تزال فى حداد على الصديقين المفقودين . . . والصلوات ترفع من أجلهما !

وجاء يوم الثلاثاء ، ولا يزال الاثنان مفقودين . . . فمرضت السيدة « ثاتشر » والدة « بيكى » ، وكاد شعر السيدة « بولى » خالة « توم » يبيض كله ، وخيم الحزن على سكان القرية .

وفى منتصف الليل ، دقت أجراس القرية ، وكانت قوية متتالية . وبعد لحظات ، امتلأت طرقات القرية بالناس وهم يتصايحون :

— افرحوا ! افرحوا ! لقد وجدناهما !

واندفعت الجماهير إلى النهر ، فالتقوا بالصغيرين « توم » و« بيكى » يركبان عربة مكشوفة ، يدفعها المواطنون الذين كانوا يصيحون صيحات الفرح والابتهاج ، وفى كل خطوة كان عدد من سكان القرية ينضم إلى الموكب ، وهو يسير فى اتجاه بيت الصغيرين ، مارا بالشارع الرئيسى ، والهتافات تتعالى معبرة عن الفرحة الكبرى بحياة الصغيرين .

* * *

ولم يذهب أحد إلى فراشه فى تلك الليلة ، فقد كانت أعظم ليلة مرت فى تاريخ القرية ! وفى خلال نصف الساعة الأولى تقاطر موكب من القرويين إلى بيت القاضى « ثاتشر » والد « بيكى » ، وكانت العربة قد وصلت إليه ، وكان القرويون يقبّلون الصغيرين ، ويهزّون يد السيدة « ثاتشر » مهنّئين ، ثم يخرجون وعلى وجوههم دموع الفرح ، ويُخْلُون المكان لغيرهم من المهنئين . وكان أحد الأشخاص قد أسرع إلى الكهف ليزفّ البشرى الكبرى إلى القاضى الذى كان يتتبع بنفسه محاولات البحث عن المفقودين داخل الكهف .

أما الخالة « بولى » فقد كانت سعادتها بعودة « توم » سالمًا ،



لا توصف! .. واسترخى « توم » على كنبة مريحة ، وحوله جمهور يتطلع إليه في شغف واهتمام ، وهو يروى قصته : كيف ترك « بيكى » ، وذهب ليستكشف ممرات الكهف ... وكيف أنه سار فى ممرين، ثم فى ثالث ، وكان على وشك أن يرجع من حيث أتى .. عندما لمح من بعيد ضوءاً يبدو كأنه ضوء النهار . . فألقى بالخيط ، وأسرع فى اتجاهه ، فرأى الضوء يأتى من فتحة ضيقة ، أخرج منها رأسه وكتفيه ، فرأى نهر « المسيسبى » العريض يجرى تحته !

وقص كيف أنه عاد مسرعاً إلى « بيكى » ، وأبلغها باكتشافه ...

وكيف أنها لم تصدقه فى أول الأمر ، ثم كيف كاد يُغمى عليها من شدة الفرح عندما تأكدت من صدق كلامه ! . . . وكيف أنهما وجدا بعض الناس فى قارب صغير ، وأن هؤلاء الناس لم يصدقوا القصة — غير المعقولة — فى أول الأمر ، قائلين لهما : إنكما على بعد خمسة أميال من الوادى الذى فيه الكهف !

ولم يكن من السهل التخلص من آثار التعب والجوع اللذين عاناهما الصغيران فى الكهف . ولم تكف ثلاثة أيام للتخلص من هذه الآثار ، فظل « توم » و « بيكى » فى فراشيهما طوال يومى الأربعاء والخميس . وفى يوم السبت كان « توم » قد استرد عافيته تمامًا ، ولكن « بيكى » لم تغادر الفراش حتى يوم الأحد . . . وحتى بعد هذا بدت كأنها فى دور النقاهة من مرض طويل !

وكان أول خاطر خطر لـ « توم » أن يذهب للبحث عن « هوكى » ، الذى وقع فريسة للمرض بعد مغامرة « تل كارديف » ، فأشرفت على تمريضه السيدة « دوجلاس » ، التى كاد المجرمان يقتلانها فى تلك الليلة . ولما حضر « توم » لأول مرة رفضت السيدة « دوجلاس » أن تسمح له بالدخول إلى غرفة « هوكى » ، ولكنها فى المرة التالية سمحت له بالدخول ، غير أنها طلبت منه ألا يبادله الحديث فى أى شىء مثير للأعصاب !

* * *

وبعد حوالى أسبوعين من حادث الكهف ، كان « توم » فى طريقه لزيارة « هوكى » ، ومر ببيت « بيكى » ، فدخل لزيارتها . . . وكان القاضى « ثاتشر » فى البيت ، فقال ل « توم » :

— اطمئن « يا توم » . لن يضل أحد فى الكهف بعد الآن ، فقد أمرت بسدّ مدخل الكهف بباب حديدى منذ أسبوعين ، ومعى مفاتيح هذا الباب !

وعند سماع هذا الكلام ، ابيض وجه « توم » وصاح :

— ياه ! ولكن « أنجون جو » يختبئ فى داخل هذا الكهف !

وبعد دقائق معدودات ذاع الخبر . وركب اثنا عشر رجلا زورقاً واتجهوا إلى الكهف . وعندما فتحوا الباب الضخم ، رأى الجميع منظراً فظيعاً !

رأوا « أنجون جو » ممدداً على الأرض ، ووجهه قريب من شق الباب ، وخنجره ملقى بجانبه ، مكسوراً ! . . . ووجدوا حفرة تحت الباب ، وكان من الواضح أن المجرم حاول حفر منفذ يخرج منه ، ولكن محاولته أخفقت ، لأن الصخر كان أقوى من خنجره ، فمات من الجوع !

ولما ذهب « توم » لزيارة « هوكى » ، كان « هوكى » قد علم بمغامرة الكهف ، وموت « أنجون جو » . وجلس الصديقان يفكران فى المكان الذى يحتمل أن يكون المجرم قد أخفى كنزه فيه . وفجأة قال « توم » :

— أعتقد أن الكنز موجود فى الكهف يا « هوكى » !

فلمعت عينا « هوكى » ، وسأل « توم » :

— هل أنت جاد فى البحث عن الكنز يا « توم » ؟

— طبعًا يا « هوكى » ! . . تعال معى ، فإذا لم نعثر على الكنز أعطيتك طبلتى ، وكل شىء أملكه فى هذه الدنيا . وسأفى بوعدى ! والآن هل أنت مستعد لهذه المغامرة ؟

وأجاب « هوكى » فى ارتياب :

— هل المسافة بعيدة ؟ إنى لا أستطيع السير أكثر من ميل واحد . بل إننى فى الحقيقة لا أقوى حتى على ذلك يا « توم » .

— إن المسافة لا تقل عن خمسة أميال ، ولا أحد غيرى يعرف المكان الذى أخفى فيه « أنجون جو » الكنز يا « هوكى » ، ولكن هناك طريقًا مختصراً لا يعرفه سواى ، وسآخذك إليه فى زورق !

— إذن هيا نبدأ من الآن يا « توم » !

* * *

وبعد الظهر بقليل استعار الولدان زورقًا صغيراً ، وانحدرا به فى نهر « المسيسبى » . وبعد بضعة أميال أصبحا تحت تجويف الكهف ، وقال « توم » :

— هذه البقعة البيضاء على الصخرة هى علامتى ، سنرسى القارب هنا .

وأرسى الصديقان قاربهما ، ودخلا الكهف ، وشقا طريقهما حتى نهاية النفق . وبعد خطوات وصلا إلى النبع ، وانتابت « توم » قشعريرة عندما أشار لـ « هوكى » إلى آثار الشمعة التى ثبتها هو و« بيكى » على جدران الكهف ، قبل نجاتهما ! وبعد قليل وصلا إلى المكان الذى التقى فيه « توم » بـ « أنجون جو » ، وكان عبارة عن تل رملى يصل ارتفاعه إلى عشرين أو ثلاثين متراً . وقال « توم » :

— والآن سأريك شيئاً يا « هوكى » !

ورفع شمعته ، وقال :

— انظر إلى أبعد ما تستطيع ، هل ترى العلامة المرسومة على الصخر بسواد الدخان ؟

فأجابه « هوكى » :

— إنها علامة صليب يا « توم » !

قال « توم » :

— والآن هل ترى رقم ٢ ؟ إنه تحت العلامة ، تحتها تماماً ، فى المكان نفسه الذى رأيت فيه « أنجون جو » يضع شمعته . هيا نهبط يا « هوكى » لنبحث عن الصندوق .

وهبط « توم » فى المقدمة ، وتبعه « هوكى » ، وفى أسفل التل بدت أربعة ممرات تؤدى إلى داخل الكهف الصغير الذى قام التل

أمامه . وفحص الولدان ثلاثة منها ، ولكن من غير نتيجة . وقال « توم » :

– لقد قال إن الكنز تحت الصليب ، لا بد أن يكون الصندوق قريباً من الصليب ، ومن المستحيل أن يكون الصندوق تحت الصخرة لأنها ثابتة على الأرض .

وأخذ الولدان يبحثان فى كل مكان مرة أخرى ، وبعد فترة من الوقت قال « توم » :

– انظر هنا يا « هوكى » ! . . هذه آثار أقدام ، وهذه آثار شمعة فى الجانب الآخر من الصخرة ، أراهن أن الكنز مدفون تحت الصخرة ، إننى سأحفر تحتها !

وأخرج « توم » سكيناً فى الحال ، ولم يحفر أكثر من عشرة سنتيمترات حتى اصطدمت السكين بجسم خشبى . وأزال الولدان ما وجداه من ألواح خشبية ، فظهرت فتحة طبيعية تحت الصخر . ودخل « توم » من الفتحة فوجد نفسه فى نفق متعرج ، سار فيه ، و « هوكى » فى أثره ، وفجأة صاح « توم » :

– ياه ! انظر يا « هوكى » !

وعلى بعد خطوات كان أمامهما صندوق الكنز ، فأسرعا إليه ، وفتحاه . . وأخذ « هوكى » يغرف النقود الذهبية بيديه ، ويقول :

– لقد أصبحنا من الأغنياء يا « توم » !

فيرد عليه « توم » فى مثل حماسته :

– إننى كنت واثقًا دائمًا أننا سنصبح من الأغنياء فى يوم من الأيام يا « هوكى » !

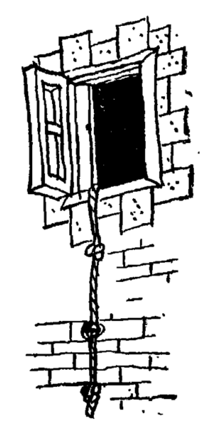
وحاول « توم » رفع الصندوق ، ولكنه كان ثقيلا ، فتركه حيث هو ، وقال :

– لقد كنت على حق عندما أحضرت هذه الأكياس الصغيرة معى .



وسرعان ما أفرغ الولدان النقود من الصندوق، ووضعاها فى الأكياس.
وبعد قليل خرجا من الكهف ، ونظرا حواليهما ، فرأيا المكان خاليًا ، فركبا القارب ، وراحا يجذفان متجهين نحو الشاطئ . . .





١٤

لم يصل الصبيان إلى الشاطئ الآخر إلا بعد أن حل المساء . . . فقال « توم » :

— والآن يا « هوكى » ، هيا نخبئ النقود فى حظيرة السيدة « دوجلاس » ، ثم نعدها ونقتسمها فيما بيننا . وعليك أنت بالانتظار هنا وحراسة النقود ، إلى أن أذهب وأحضر عربة « بنى تيلور » الصغيرة .

واختفى « توم » ، وظهر بعد قليل ومعه

العربة . فوضعا الأكياس عليها ، وغطياها بالخرق البالية ، وسارا ، وكان « توم » يجر العربة خلفه . وعندما وصل الولدان إلى منزل « ويلشمان » توقفا لينالا شيئاً من الراحة . وعندما همّا باستئناف السير ، خرج « ويلشمان » من البيت ، وصاح :

— من هناك ؟

فجاءه الرد :

— « هوكى » و « توم سوير » !

فصاح الرجل :

— تعاليا معى ، إنكما تجعلان الجميع ينتظرون ، هيَّا أسرعا أمامى وأنا أتولى العربة بدلا منكما . ماذا أرى فيها ؟ طوب ؟

فقال « توم » :

— بل معدن قديم .

فتساءل « ويلشمان » :

— معدن قديم ! هذا ما توقعته ، فأولاد هذه القرية يضيعون وقتهم فى البحث عن أشياء قديمة لا تساوى ملاليم ، ولو أنهم انتظموا فى عمل لكسبوا مالا وفيراً . ولكن هذه طبيعة البشر . هيَّا ، أسرعا !

فسأله « هوكى » :

— لماذا الإسراع يا سيد « ويلشمان » ؟

فأجابه :



— ستعلم السبب عندما تدخل بيت السيدة « دوجلاس » !

وبعد دقائق وجد الولدان نفسيهما قد أدخلا غرفة الاستقبال فى بيت السيدة « دوجلاس » ، فى حين تركت العربة بالقرب من الباب . وكانت الغرفة مضاءة ، وفيها عدد من أهل القرية البارزين . وتلوّن وجه الخالة « بولى » بحمرة الخجل ، وهى ترى ملابس « توم » يغطيها الوحل !

وقال « ويلشمان » :

— لم يرجع « توم » إلى البيت ، وكدت أستسلم لليأس حتى عثرت عليه هو و « هوكى » أمام باب بيتى ، فأحضرتهما بسرعة .

فقالت السيدة « دوجلاس » :

— حسنًا فعلت يا سيد « ويلشمان » . تعاليا معى أيها الولدان !

وأخذتهما السيدة « دوجلاس » إلى الحمّام ، وقالت :

— اغتسلا ، وقد أحضرتُ لكما ملابس جديدة فالبساها ، وهى ملابس خاصة « بهوكى » ، ولكنها تناسبك أنت أيضًا يا « توم » ، وبعد أن تفرغا من اللبس ، انزلا إلى المجتمعين فى أسفل .

وبعد أن غادرتهما السيدة « دوجلاس » ، قال « هوكى » :

— اسمع يا « توم » ، إننا نستطيع الهبوط من هذه النافذة إلى الطريق إذا عثرت على حبل .

فسأله « توم » :

— ولماذا تريد الهرب ؟

فأجابه :

— إننى لم أتعود مثل هذه الحفلات . إننى لن أنزل إليهم فى أسفل يا « توم » .

فقال « توم » :

— لا تبالغ فى شعورك يا « هوكى » ، وسأكون بجانبك .

وظهر « سدى » ، وقال :

— لقد كانت خالتى فى انتظارك بعد الظهر يا « توم » ، وقد أعدت لك « مارى » ملابس يوم الأحد ، وكان الجميع يسألون عنك . قل لى ما الذى لطخ ملابسك بالوحل ، وبقايا الشمع ؟

وقاطعه « توم » متسائلا :

— لماذا أقيمت هذه الحفلة ؟

فرد عليه « سدى » :

— إنها حفلة تقيمها السيدة « دوجلاس » تكريمًا « لجونز ويلشمان » وولديه . ولقد سمعتها تهمس فى أذن خالتى أنها ستذيع سرًّا هامًّا على الناس هذه الليلة ، ولكننى أعتقد أن الجميع يعرفون هذا السر ، وهو أن « هوكى » هو الذى اقتفى أثر اللصين إلى بيتها !



١٥

وبعد دقائق كان ضيوف السيدة « دوجلاس» قد أخذوا أماكنهم حول مائدة الطعام . وقام السيد « جونز » فألقى خطابًا شكر فيه السيدة « دوجلاس » من أجل الشرف. الذى أسبغته عليه وعلى ولديه ، ثم كشف سر الدور الذى قام به « هوكى » فى مغامرة اللصين . وتظاهرت السيدة « دوجلاس » بالدهشة ، وأمطرت « هوكى » بتحياتها ، مما جعله ينسى ضيقه من الحفلة ،

ومن ملابسه الجديدة ، ومن نظرات الحاضرين التى أحاطت به .

واشترك الحاضرون جميعاً مع السيدة « دوجلاس » فى الثناء على « هوكى » . وقالت السيدة إنها تنوى دعوة « هوكى » إلى الإقامة معها فى بيتها ، وتعليمه وإعداده للعمل فى المستقبل ، وسوف تقتصد له قدراً من المال .

وجاء دور « توم » ، فقال :

— إن « هوكى » ليس فى حاجة إلى المال ، فهو غنى !

وكان من الصعب على الحاضرين أن يكتموا ضحكهم على ما بدا فكاهة من جانب « توم » !

وساد صمت غريب ، ثم استأنف « توم » :

— إن « هوكى » يملك المال فعلا . ربما لا تصدقون هذا ، ولكن الحقيقة أنه يملك قدراً كبيراً من المال . لا تبتسموا ، فأنا مستعد أن أكشف لكم السر . انتظروا لحظات !

وخرج « توم » ، فى حين كان الجميع ينظرون إلى « هوكى » نظرات استفسار ، أما هو فقد لزم الصمت !

وقالت الخالة « بولى » :

— اسمع يا « سدى » . ماذا جرى « لتوم » ؟ لا فائدة من إصلاح هذا الولد !

ودخل « توم » وهو يحمل أكياسه الثقيلة ، وأفرغ القطع الذهبية على المائدة أمام « هوكى » :

ـــ هذا ما كنت أقصده : نصفه لـ « هوكى » ، ونصفه لى !

وحملق الحاضرون فى الذهب بعيون جاحظة من الدهشة ، ولم ينطق أحد بكلمة بضع لحظات ، ثم انفجر الجميع يسألون عن سر الكنز !

وشرح « توم » للحاضرين قصة العثور على هذا الكنز . . . وأحصيت النقود الذهبية ، فبلغت حوالى اثنى عشر ألف دولار ، وهو مبلغ كبير لم ير أحد من الحاضرين مثله فى حياته !

ووضعت السيدة « دوجلاس » نصيب « هوكى » من الكنز فى البنك بفائدة قدرها ٦٪ ، ووضع القاضى « ثاتشر » نصيب « توم » بالشروط نفسها كطلب الخالة « بولى » ، فأصبح ينتظر أن يحصل كل ولد منهما على دخل محترم فى السنة !

* * *

ومنذ ذلك الوقت أصبح الجميع يرحبون بصحبة « هوكى » ، بعد أن صار من الأغنياء ، وبعد أن ذهب ليعيش مع السيدة « دوجلاس » ! . . ولكن متاعبه زادت أكثر مما يحتمل : فقد أصبح مضطراً إلى تناول طعامه مستخدماً الشوكة والسكين ، والفوطة ، والكوب ، والطبق ، وأن يقرأ الكتب ليتعلم . . . إلخ .



واحتمل « هوكى » كل هذا العذاب ثلاثة أسابيع ، وبعدها اختفى الولد تماماً . وظلت السيدة « دوجلاس » تبحث عنه فى كل مكان أسبوعين كاملين ، ولكن بدون جدوى !

واشترك معها فى البحث عدد كبير من سكان القرية .

وفى ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام ، ذهب « توم » يبحث بين البراميل الفارغة خلف المذبح القديم ، وفى برميل منها عثر على « هوكى » الهارب ! . . وكان مرتدياً أسماله القديمة التى كان يرتديها أيام كان حراً طليقاً سعيداً !

وعندما رجاه « توم » أن يعود إلى بيت السيدة « دوجلاس » ، قال له « هوكى » :

ـــ أرجوك ألا تكلمنى فى هذا الموضوع . صحيح أن السيدة « دوجلاس » كريمة معى ، ولكننى لا أستطيع تحمل أسلوب حياتهم ، فهى تجعلنى أغتسل وأمشط شعرى ، وأرتدى الملابس التى تضايقنى ، وارتدى الحذاء طول يوم الأحد . وهم يأكلون بميعاد ، وينامون بميعاد ، ويستيقظون بميعاد ، وكل شيء له ميعاد ، وهذا ما لا أستطيع احتماله !

فقال له « توم » :

ـــ ولكن ، كل الناس يخضعون لهذا النظام يا « هوكى » !

ـــ ولكننى لست ككل الناس يا « توم » ! لن أستطيع تحمل هذه الحياة ، ففى كل مرة أريد صيد السمك أو الاستحمام فى البركة ، لا بد أن آخذ إذناً ، ولا بد من الاستئذان لعمل أى شيء ! والسيدة « دوجلاس » تمنعنى من الصياح ، ومن التمدد فى العراء . . . كل هذا بالإضافة إلى المدرسة والكتب . اسمع يا « توم » : إننى لا أهتم بأن أكون غنياً ، فهذه الملابس البالية تعجبنى ، وهذا البرميل يكفينى ، وهذه الحياة الحرة الطليقة تسعدنى ، ولن أغيّر حياتى هذه مطلقاً يا « توم » . اذهب وأبلغ السيدة « دوجلاس » هذه الحقيقة ، قل لها إن « هوكى » لا يريد أن يكون غنياً ، ولا يريد أن يعيش فى المنازل . . فإننى أحب الغابة ، والنهر ، والبراميل ، ولن أتحول عن حبها !

فقال « توم » :

ـــ اسمع يا « هوكى » ، ألا تريد أن تنضم إلى النادى الذى سأقيمه ؟ إننى سأشرع فى تكوين ناد يجمع أحسن أولاد القرية !

ـــ حقًّا يا « توم » ؟

ـــ طبعًا ، ولكن لن نستطيع ضمك إلى هذا النادى ما لم يكن مظهرك محترمًا .

وتكدّر « هوكى » ، وقال :

ـــ كيف لا تسمح لى بالانضمام إلى ناديك ، وقد اشتركنا معًا فى مغامرات كثيرة ؟

ـــ ولكن الأمر يختلف يا « هوكى » ، فهذا النادى سيكون له اسم محترم بين الناس . كل الناس سيتكلمون عن « نادى توم سوير » ، فهل ترضى أن يقال إن النادى يضم المتشردين ؟

وصمت « هوكى » لحظة ، وأخيراً قال :

ـــ حسناً يا « توم » . سأعود إلى بيت السيدة دوجلاس إذا سمحت لى بالانضمام إلى النادى !

ـــ مدهش يا « هوكى » ، وإنا سأطلب من السيدة أن تمنحك شيئًا من الحرية .

ـــ ومتى ستبدأ تكوين أعضاء النادى ؟

ـــ الليلة سأدعو الأولاد إلى اجتماع لحلف اليمين ، واحترام شعار

النادي : سنقسم على أن يقف كل واحد إلى جانب زميله ، وأن يحافظ على أسرار النادى ، وينتقم من كل من يعتدى على أى فرد فيه .

— هذا رائع يا « توم » ! ! وأين يكون الاجتماع ؟

— سيكون فى البيت المسكون ، فى منتصف الليلة !

— هذا رائع ، رائع جداً يا « توم » ! .. إننى سأقيم فى بيت السيدة « دوجلاس » إقامة دائمة ، حتى أكون عضواً منتظماً فى هذا النادى الذى سوف يتحدث عنه كل الناس . وأعتقد أن السيدة « دوجلاس » ستكون فخورة بى . .

(تمت)

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)



مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام .

ظهر منها :

٢١٢٥٩٦/٠٢

ص
٤٠